قصص

وش الفجر



يوسف أبو رية

وش الفجر

قصص

يوسف أبو رية

فهرس

ضحكة الملائكة

خطـوة

(أ)

في ليلة الجمعة، تجرد أبوه من ثيابه، وجامع أمه مرتين بعدها ارتدى القميص الأبيض على اللحم وارتوى – بصوت عال – من القلة الناضج ماؤها على أرض النافذة، ثم قبع على الحصير يلوك قطعة اللحم التي تعيد للبدن قوته، بينما قبعت أمه هناك بالكرار تمصمص عظمة، وتراعي الماء الذي يغلي على وابور هيج صمت الليل.

(ب)

مع نطقة الفجر، كانت القابلة تغرس أصابعها في كيس الرحم فاصطدمت بالرأس اللين، صرخت أمه صرختين، وصرخ هو مائة صرخة.

وانطلقت من النسوة المشمرات الأكمام أغاريد زفتها الريح.

قلبت القابلة بين فخذيه، فرأت البلبل راقدا في عشه الصغير.

همست في أذن الراقدة بالوجه الأصفر، فتحرك الدم في الجسد المنهك ولون الوجه الذي اندس بين الوسادتين بحمرة الحياة.. وامرأة رفعت الماء بالخلاص لتدلقه بعيدا.. بعيدا في الخرابة.

(ج)

عند بزوغ أول شعاع من شمس النهار، أقبل الصبية وتزاحموا في أركان الدار، لما دخلت القابلة من الباب الكبير خلعت الجلباب الأسود، ورمت الطرحة السوداء، عند الرأس النائم الصغير دقت يد الهاون سبع دقات، فراح يبرق بعيونه الواسعة المكحولة، وأنصت لكلامها.

قالت ضمن ما قالت: اسمع كلام أبيك.. وكلام أمك، وكلام كل كبير. ودعته بأن يصير قويا يضرب بذراعه الصبيان من عمره.

وهزته في الغربال سبع هزات.

ثم قامت امرأة ترش غرف الدار بحصى الملح.. وتكبر وتكبر حتى انزوت بعيدا روح إبليس التي تضمر له الشر.

في الضحى، سحبت منه الثدي، وكومت أمامه ألواح الخشب وعلب الصفيح، وراحت تسوي ما هدمه النوم، والولد قبع في الردهة يخبط في أخشابه حتى رأى شريط الضوء

الملقي على الأرض أمام الباب الموارب.

مرق من بين الضلفتين إلى العتبة العالية، ثم هبط من الحجر المغروس بالأرض إلى الشارع، وفي الشارع كانت أجسام ضخمة تمشي، وأبنية مرتفعة، وأعمدة طويلة بينها سلك تقف عليه كائنات دقيقة سرعان ما تحلق فوق الأسطح، رأى الولد كل هذا، ورأى ظل الجدار الرطب تحته ماء ناشع، مد إليه اليد الصغيرة، فالتقت بالحشرة الراقدة بلون الطين، انتفض قلب الولد لما ضربت بأجنحتها الهواء وطارت.

ورأى الكلب الصغير ينام هناك تحت العمود رأسه بين يديه..

بدأ يحبو بعرض الشارع إليه، وهناك وسط الطريق، كانت أربع كائنات ارتفاعهن ينتهي بسقط من لحم له قبة، وللكائنات الأربع مفاصل ووسائد تلامس الأرض بثقل هين، رآها الولد تهجم عليه، ورأى اليد القوية تخطفه من تحت أبطيه، وسمع الصيحة من ثغرة عميقة لها أسنان مصفرة وفوقها شعر خشن مرتعش، ورأى العينين مرعبتين تحت الحاجبين الكثيفين.

لكنه لم يبك إلا بعد ما قذفته اليد القوية في شريط الضوء، ولعنف بكائه لم يسمع الرجل يزعق في أمه.

بيت وحيد

-١-

هذه هي مقبرتها تصغي للريح البعيدة، تسف الرغام، تخضع لتعاقب الليل والنهار، والصبار حولها مات منذ عام، ترقد في أحشاء الظلمة عظامها المتراكمة، المختلطة بعظام صغيرة لأطفال اختطفهم الموت منها منذ المهد.

لم تزرها غير أختها الحزينة حين أرادت – ذات خميس – أن تهب الفطائر والخبز لأبيها الذي تحبه، مرت عليها، تلت الفاتحة، ودعت الرب ليغفر لها، ويضمها في جناته – رغم ما كان – حيث الفاكهة والماء السلسبيل.

تأتيها الشمس بالذباب الأزرق الجسور، وبالنور يكشف البكاء على الشواهد المجاورة ويفضح وحدتها.

بينما الليل يقبع في عباءته الشيطان والملاك، ليستر الأشجار التي تسقط طرحها، ويجمع كل الشواهد جزيرة وداء ضائعة.

-٢-

هذا هو بيتها بالحجرات الكثيرة والردهة الطويلة الممتدة،

لا يدخله الناس منذ أن كانت بين أخواتها والجيران تقاوم ملاك الموت ذا القلب القاسي.. ترجوه في هذيانها بالتريث حتى تعود البنت والولد الضائع في مدن الوحشة، لكنه خبط الباب بعنف واغتصبها بيد القوة من بين النسوة.

في الصبح صفت الكراسي واجتمع الناس يحملونها بهدوء – رغم المقاومة الميتة – فهم يعلمون أن الولد لا يعتقد كسائر الناس أن للأموات أشواقًا أو عتابا، ولن يعود حتى تضربه المدينة.

وها هو يعود بزوجة التي – كل مساء – تنتظر أوبته المتأخرة لتمنحه لحمها على سرير الجدب.

حين التقى بالناس قالوا: مرحى..

وهمسوا فيما بينهم: قد لا يحسن حرث الأرض التي خلفتها أمه.

ولم يعرفوا سره المدفون في دمه.

بالليل حين يخرج من الحجرة المحمومة المظلمة تتجسد أمامه الأنثى الولود ذات العناقيد المثمرة، فيؤكد لنفسه: حين يكثر لدى المال، سأضم من تنجب الولد الذي يملأ فراغ الحجرات الواسعة، بضحكات البراءة والمرح.

الأســود

(أ)

ولدته أمه بعد موت أبيه، وسمته (محمد) لكن الناس سموه (محمد الأسود) ذلك أنه ولد ببقعة سوداء ترقد كخنفساء على صدغه، وأرادت أمه أن يصير معلما في المدارس، فأدخلته كتاب الشيخ العجوز، ولأن الولد كان يهرب من الكتاب إلى الترعة يسبح في مائها مع الأولاد، ولأن الشيخ العجوز قال لها: ابنك لا ينفع ببصلة..

جعلته يترك الكتاب، وسحبته من يده إلى شارع السوق، وقالت: ربما يصير له شأن إذا تعلم كيف ينسج الخيط بالسمار ليصنع الحصيرة والمصلى. وقدمته للمعلم صانع الحصر فقبله صبيا، يبلل السمار بماء الترعة، ليلين في يد المعلم يضفره بالخيط؛ ولأن الولد كان يترك السمار على الشط، ويخلع ثيابه لينزل الماء عاريا، يسابق الأولاد في العوم، ضربه المعلم، وأرسله إلى أمه باكيا، قالت أمه للجارات: غلبني الولد.

فأشرن عليها بأن ترسله للأسطى الحلاق، يسلسله في

الكرسي حتى يتعلم الصنعة.

في الصبح جرجرته أمه إلى شارع السوق وقدمته للأسطى الحلاق وقالت: اضربه إن خالف أمرك.

وتعلم الولد كيف يملأ الأبريق من الجامع القريب، ليضعه في مكانه أمام الباب، يشرب منه الزبون وناس العزب الذين يعبرون الشارع.

وتعلم كيف يرش الماء أمام الباب بعد أذان العصر، وكيف يمسك المذبة، يهش بها الذباب عن وجه الزبون، وكيف يمسك الفوطة ينظفها من الشعر، يضربها في الهواء لتحدث الفرقعة المحببة إلى نفسه.

وكان يعود – إلى أمه – آخر النهار، ولا يكلمها عن الصفعة التي ألهبت الصدغ، أو الركلة التي أوجعت العظم.

(ب)

تحدث البلد عن الولد ابن أمه الذي صار رجلا يحمل حقيبة الجلد في يده، يلف بها الغيطان حيث يختار الظلة الثقيلة على مدار الساقية، ليحلق رءوس الرجال، وفي مواسم الحصاد تدخل زكائب القمح والذرة داره.

وعن أمه التي راحت تنشر الأذرة بطول السطح، وتملأ الصناديق بالقمح، وتبيع الحطب الذي يأتيها بأحمال الجمال.

كما تحدث البلد عن زواجه من (لوزة) ابنة (المصري) صانع السلال، الذي هجر أمها بعدما التحق بأهل الطرق يجوب معهم المدن والقرى، يذكر الله، ويرفع الرايات في الموالد.

ولما ماتت (لوزة) حين أرادت أن تلد ابنها البكر، مصمص البلد الشفاه. وقال: ها قد ماتت المسكينة وتركت الولد تربيه أم الأسود.

(ج)

جعلت أم الأسود الولد في نيني العين، ترعاه حين يزحف على تراب الشارع معقود الجلباب، وحين يرقد كانت تمكث مع ملاك النوم تهش الذبابة المؤذية والشبح الذي يفزعه بعين النار وصوت الرعد.

وكانت تضحك حين تداعبه الملائكة فيبتسم، وترفع يدها للنجم تدعو إلهه أن يحمي اليتيم من عين الحساد القتالة.

وذات ليلة حدثت نفسها العجوز قالت: يصير الولد معلما

في المدارس.. يقرأ قرآن الله. يفك الحرف ويفهم المعاني.

في الصبح اشترت له اللوح والقلم، قالت لصاحب الكتاب: اجعله كابن لك.. لكن الجار القريب جاءها يوما حاملا الولد على كتفه، قال:

خطفته من بين عجلات القطار الحديد.

صرخت العجوز في وجه الولد، ولطمته على خده، فزعت الخنفساء الراقدة بتشبث، لما سألته عما كان يفعل عند القطار الذي يأكل أبناء آدم..

سكت الولد ثم بكى. في آخر النهار قال أبوه: يا أم لم يخلق الولد لعلم الكتب، بل لحرفة أبيه خُلق.

قال البلد: ها قد صار ابن الأسود حلاقا، بينما اختفى أبوه، ربما يكون في صحبة حميه يجوب المدن ويرفع الرايات، أو يكون هناك في ملكوت الذي لا ينام، وقد ضم رفاته تراب أرض وقع في قلبه عشقها.

الولد الكفيف يرى في الحلم

اليوم هو الجمعة، والولد الكفيف في صحبة أمه، على طريق المقابر، وفي المقابر نساء حزينات لهن في التراب أجداد وآباء وأمهات وأزواج وأبناء، وفي القرآن الذي يحفظه الولد الكفيف رحمة للجميع، تجلسه أمه حين تطلب النساء، فيتلو: قل هو الله أحد.. الله الصمد.

ويتلو: قل أعوذ برب الناس .. ملك الناس.

فينال الفطائر والخبز، ولا تعود به الأم – إلى الدار– حتى تمتلئ السلال، ويقضي الأيام، في الصبح تصحبه أمه إلى الشيخ، مع باقي الصبية يردد الآيات، ويسمع السيرة النبوية فيعرف أن النبي ولد طفلاً، كمثل كل الأطفال، وكان فقيرا يتيما. لكنه حين صار رجلاً، قال لقومه: آلهتكم من حجارة، لكن الله نور السموات والأرض، وقال للعبيد: الناس سواسية كأسنان المشط.

وركب الفرس العفية وبيده سيف بتار، وقادهم حيث يقتل الجهالة، ويبني للناس مدينة منورة.

لكن الشيخ كان يضربه بالخشبة العريضة حين يخطئ في

تسميع السيرة، لم تكن في عقله كما يريد الشيخ، وإنما كانت هناك في أعماق قلبه، تتوهج بالضوء الناعم المفرح.

كما كانت تضيء ليل أحلامه، فيرى النبي بالثوب الأبيض على الفرس البيضاء بيده الراية الخضراء، والسيف اللامع، وهو الكفيف صغير السن بين قوائم الفرس يرى النور، وظل الفرس على الرمل الأصفر يمد يده الصغيرة يريد أن يمسك بالراية ذات النجمات الثلاث، أو بالسيف الذي يبرق في الشمس وفي أحيان أخرى يرى نفسه داخل الجبة الفضفاضة، وعلى رأسه طربوش أحمر بزر أسود. فوق المنبر العالي، وأمامه الناس بعيون مفتوحة يقول لهم كلاما يضيء ما بين أضلاعهم، ويفرش لهم الطرق بالنور الأخضر، ثم وهو في المحراب المزخرف بالنقوش، وبآيات القرآن، من خلفه الناس يقومون إذا قام، ويركعون حين يركع.

يقول: غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فيردون بصوت الرجل الواحد القوي: آمين.

لكنه في النهاية ينهض، ويفتح عينه فإذا هي لم تزل تنظر الظلام المقيم، وبخدر الحلم الليلي، يقوم فيتوضأ ويسحب عصاه إلى المسجد القريب، ليقف خلف الإمام، ويردد مع

الناس: آمين.

وحين تأتي الشمس بنورها، ويتحرك الناس في الطرقات، تصحبه أمه إلى الشيخ فيندس بين الصبية، ليردد الآيات، ويسمع السيرة، وفي الجمعة يقرأ للأموات، ليملأ السلال بالفطائر والخبز.

التحاريق

(أ)

خلع معطفه "الميري" الأصفر، مدده على كومة التراب، ألقى عليه حجرا.. وقف على الحافة، الأقدام غاصت في الطين اللين – عليه آثار حوافر، وحشائش وشوك جاف.

القدمان في العمق، والماء البارد حول الساقين.

"النهر الكبير يخرج من بطنه الماء إلى الروافد الكثيرة، والترع الصغيرة تجاب منها الماء، تجف حين تبقى في النهر الأكبر.."

الراحتان تجوسان في البقعة الفوارة بطين القاع.

"الجهد يذهب سدى دون سد".

من أمام قطع من طين الحافة، وصنع سدا.

الأشجار تحنو بفروعها الخالية من الورق، قطع بعضها منعا للمعاكسة. ومن خلف أقام سدا.

"الجهد يذهب سدى دون دلو"..

قبل البدء في النزح، صعد إلى الجسر، السواد الطيني في

ساقية حتى الركبتين، قرب البرسيم من الأشداق التي سال عليها الزبد، نفخت الماشية، واقتربت في كسل، عدل الخيش على ظهورها.

نظر جهة المدينة.. لم يأت الحاج بعد، الطريق في امتداده يتمطى وحيدا، ونفاخ النار راقد في جوف الأرض، الريح لما تزل تتقافز فوق الزروع وعلى رءوس الأشجار، الكفان المتلاصقان يحملان ماء ما بين السدين يدلقانه.

"وراءك حتى المغرب يا صيدي الحلال"...

(ب)

في طريق العودة – قبل يومين – رأى صيادين في باطن النهر بشباك فيها سمك حي كبير وصغير، يبيعونه في سوق المدينة للكبار والصغار. في العمق زحفت اليدان بحذر.

في جانب عثرتا على سمكة "أيتها السمك".. لست مرامي.

رآه بظهره الأسود يسبح، ضرب سطح الماء واختفى.

السماء انسدت بغيم أسود، الضوء الباهت المشبع بالبرد شمل الحقول البعيدة والقريبة، تطلع يبحث عن الشمس تدفئ عظامه.

يجمع الحطب الجاف يضرمه نارا في (راكية).

"على الجذوات يكون أكثر اشتهاء".

عاود نزح الماء الذي لا ينتهي.

ذاب طين السد تحت ثقل الماء، قطع له من الحافة، ضغطه بيده، دعمه بالكتلة الكبيرة، مرر الكف على سطحه، وجانبيه.. بدا متماسكا.

الكلاب يتشمم السمكة المنزعجة على الجسر، هدده، لم يهتم، رماه بطوبة لاصقة بباطن الترعة، رجع بظهره للحظة، ثم حاول الاقتراب بتصميم، خرج إليه، لم يكن عن رميه بالحجارة حتى اطمأن أنه لن يتجاسر على العودة، وضع السمكة المتربة في المنديل، جمع فتات الخبز المتبقية فيه، دفعها إلى فمه. نظر جهة المدينة "ربما لا يأتي الحاج اليوم"..

(ج)

"الأم تأتي بالسمك الصغير من السوق، تكون الفرحة إذا عاد به إلى الدار" حين يجف الماء، وتعود الجنيات التي تتربص بالناس إلى بيوت النار في الأغوار، يرقد السمك في

القاع، أو يموت على الحافة.

"ترعتنا لا يأتيها إلا الصغير، فكيف هرب من شباكهم المتينة؟؟".

عثر على سمكة، أراد أن يلقيها على الجسر، تذكر الكلاب" ربما يعود" دسها في عبه، خبطت بطنه بزعانفها الضعيفة، ثم همدت" تموت بعد المعافرة" الجحش الصغير نهق بدلع "هل رأى أمه يركبها الحاج؟"

نظر جهة المدينة، فلاح خلف حماره يردد أغاني قبيحة.

- تعال.

- الحمار عليه حمل.

- قدمه من البرسيم.

أدار وجه الحمار، شمر كميه وذيل جلبابه، نزل إلى الجانب الآخر.. تقابلت الأكف.

- لا شيء.

- أأكذب عيني.

- سمكة؟

- قرموط.

تراجعت الأكف، غاصت الأصابع في العمق.

(د)

تقاطر الدم ممزوجا بطين اليد، وصرخة الآه كانت حادة، انتصب الآخر، قدم مهرولًا في بقايا الماء العكر، مسح الدم بالماء.

- الحذر.
- القاع ممتلئ بالشوك والزجاج.

عاد هو الآخر كل إلى مكان، تشنجت الأعصاب بكفه السليم، التفت الأكف في المنتصف.

- أنت تبحث عن الوهم.
- اصبر.
- وأشغالي؟

تسلق الآخر الحافة غارسا أقدامه في الآثار القديمة المطمئنة، هدم – هو – السدين، تدفق الماء المحتشد بشوق، صعد خلفه، وقف على الجسر، قد من ذيل الجلباب، ربط جرح الأصبع.

- سلام.

- سلام.

طرح جسده منهدا على الكومة، سلم وجهه للغيم المتراكم، يتوالد في أشكال خرافية، انتفض على الضربة المفاجئة، أزعجت الماء الراكد.

في لمحة كانت عينه في عمق الماء الفوار.

داس الطين، قطع منه ليصنع سدا من أمام، وسدا من خلف..

وراح ينزح بالكفين.

يوم للدود

الصبح:

كانت الشمس تتقد برءوسنا حينما رأينا المهرة تنشق عن كتلة الغبار البعيدة، قطعت البنات الغناء بعد إذ دارت عصا العجوز الطويلة اللينة على ظهورنا وأفخاذنا.

صرنا صفا من الظهور المحنية المرعوبة، تبحث عيوننا – بعناية – عن الورقات المصابة.

اقترب الغبار تسبقه المهرة المكتنزة، تعتليها القبعة السوداء والقميص الشفيف، والسوط الأسود.

- اسكت (قالت البنت التي عن يميني):

وكنت – من قبل – أحاورها، ولم أفلح – بعد – من التأكد ما إذا كنا سنلتقي عند الغروب، وكنت قد حددت لها المكان في حوش المقبرة.

سمعنا لُهاث المهرة في ظل الصفصافة النائمة، وضربات سيقانه بين الشجيرات، غطى عليه زعيق العجوز، بسب بهمة أبائنا وأمهاتنا.

الظهر:

سرنا بعرض أرض القطن الممتدة، يقطعها المصرف، ماؤه عكر يطفو عليه الريم، ويسبح في بطنه الضفدع وكلاب البحر، بأعلى المصرف طريق عليه طبقة من التراب المهتاج.

عند السبيل الذي جف ماؤه وتسلقته ملوحة التربة، قفزنا اختناقة المصرف إلى الطريق، تنتهي عنده مصاطب القبور، تعلوها الشواهد المدهونة بالجير والمنحوت على رخامها اسم الراقد في سبخه.

كان العجوز هناك عند الجسر بصحبة الملاحظ، كان يلاعب عصاه بالهواء، ويحادثه بحماس، وكنا قد علونا مصاطب الطين، ودسنا مصطبة بحجم جثة طفل، لنصل إلى المقبرة العريضة الواسعة المشيدة بالطوب الأحمر والأسمنت حيث نتكوم تحت الظل الكثيف لشجرة التمر حنة، جذورها ضاربة في لحم التربة تمص دم الموتى، وتتصاعد فروعها خضراء ريانة بعيدا في الفضاء تنشر الظل الساكن، يطن في رطوبته الذباب الأزرق، نشرنا المناديل المعقودة على الجبن وقحوف الكرنب المخلل، وترددت بين المقابر الهمسات

وصوت تكسر الخبز الجاف، ظهر العجوز والملاحظ مقبلين من جهة الجسر، بينما كان ولد قد ترك منديله، وقبع هناك، عند الجذع كاشفا عن ظهره، وولد آخر يتأمل كدمات العصا المنتشرة على الظهر المزرق.

المغرب:

النخلة يمتد جذعها – المائل على السور المتآكل – إلى السماء البعيدة، لينتهي بجريد جاف وسباط، تتشبث به لمحات ضامرات..

وفرع الشجرة المخضر مفرود بعرض الحوش تحلق بين ورقاته أطيار قل نظرها، وهناك في آخر الطرف كان خفاش معلقا ينتظر القيام.. وكنت أنا بالداخل مع شاهدين لأحدهما طربوش أحمر يسقط على خلفيته زر أسود، والآخر رأسه بهيئة امرأة.. عيني على الطريق الملتوي بين الشواهد الطويلة والقصيرة تنتظر جسدها النحيل ومنديلها الأحمر يتناثر من جوانبه الشعر الطويل.

داست قدمي الورق الجاف فخشخش، وانتفضت سحلية كانت راقدة، جرت مذعورة إلى جحر في السور، اختفت

للحظة ثم عادت تطل برأسها وعينيها المبرقتين، قلت لنفسي:

- إن خافت هي.. سأخاف أنا من الحوش المظلم ورءوس الشواهد المطلة.

(من قبل كنا قد التقينا بين عيدان الذرة حين أرادت جمع أوراق الملوخية، حين اشتقنا الرقاد في القناة الجافة بين الأحواض، فاجأتنا رأس صاحب الأرض الغاضب بالشارب المرتعش، جرينا وسط الزرع حتى انضممنا إلى الأولاد على الجسر، كانوا يخلعون الثياب ويلقون أجسادهم في الماء الرائق).

لما سمعت الصوت رأيت الرجال على كتف أحدهم فأس، والآخران شمرا الجلباب وقبضا عليها بالأسنان، يسيرون بهمة جهة الطريق الصاعد، وراء ظهورهم كان الغبار متجمعا حول جماعة يتوسطهم نعش يهتز، وينطلق من بينهم عويل نسوة يلطمن الخدود، ويثرن التراب.

خفت أن يتعرى القلب، وينكشف الشوق الحرام، أردت أن أطلق القدم للريح، لكني آثرت أن أدير لهم الظهر، ورفعت الجلباب، أخرجت من ثنايا السروال بشري الراقد، رحت أخطط السور المتهالك بالبول، فامتصت مسام الحجارة الماء بشوق.

أول النهار

في هذا الصباح، وقفت أمام الحفرة بعرض الشارع، ما إن قفزتها وأعدت توازني حتى سمعت من ينادي اسمي، نظرت ورائي، كان الأسطى "فرج" يقبل ناحيتي مادا يده النحيلة، بوجهه المغسول على بقايا نوم، ارتميت في حضنه، وقبل كل منا صدغ الآخر، وسألني: على فين؟

قلت: أشتري الجرايد.

وسألته: لسه طالع؟

قال: كل يوم في الميعاد ده.

وسألته: لسه بتشتغل على نفس الخط؟

قال: أيوه.

ومسح عظمة الوجه البارزة، ثم نظر إلي إصبعه، قلت: النضارة خبطتك؟

قال: ولا يهمك. وفرك كفي الذي أمسكه بدفء.

وقال: ما معاكش حجرين؟

قلت: معي.

في الزيارة السابقة اشتكى لي من أبي، وقال: لقد هب في وجه زوجي بدون سبب، وقال: لا تزورونا ولا نزوركم، لا يأتينا منكم غير وجع الدماغ، وقال: إنه لم يغلط فيه؛ لأنه حين أرادت أمي أن تصحب زوجه لتؤانسها لتفتح باب الدار الخلفي، قال لها: امرأتي لا تخرج من بيتها ليلاً، ثم إنها تعد لي العشاء، فابحثي عن أحد غيرها يحميك من الكلب الراقد في الحوش.

وكنت طالبته بألا يزعل منه؛ لأنه طيب القلب. وناره قش، فأمن على كلامي وقال: خلينا بعيد حتى يروق دمه.

من يومها لم يعد يعرف مواعيدي، ولم يجرؤ على البص من النافذة فنقف لنتكلم عن كل شيء، ثم نؤكد على موعد السهرة في المقهى المجاور لدارنا.

دخلنا "الجراج" كانت غرزة "الأخرس" المطلة على حوشه الواسع مفتوحة، وأبواب "الجراجات" المغلقة تسطع عليها شمس الصبح، وصوت المذياع يردد أغنية للكروان الذي غنى وصحانا، والأرض مرشوشة ونظيفة، تهب منها رطوبة محببة، ولم يكن هناك غير "رءوف" يجلس على الكرويتة أمام الباب، يقعي أمامه "التهامي" بمعطفه الأسود ممسكا

الجوزة والمصفاة المصهللة بالنار الصغيرة، قال الأسطى "فرج" : صباح الفل.

وأقبل عليه، وأنا فوجئت به، فصنعت تكشيرة على وجهي، وكدت أعود بظهري، ولكنه قام ليفسح لي مكانا، قلت في نفسي: ها هو يرحب بي .. فهل تلاشى زعله؟

ذهب الأسطى " فرج " ليفتح باب "الجراج" وقبل أن يفعل ذلك، شد نفس دخان على الواقف، وفي الطريق سعل بشدة، وبصق بلغما كثيرا، سلمت عليه، وجلست إلى جواره، وأنا أشعر بالحرج، قال: تشرب إيه؟

قلت: شاي.

وطلب من "التهامي" أن يصنع ثلاثة شاي، فأشار بإصبعه على عينه وقال: حاضر.

كنت أسهر في بيت رءوف، وانقطعت منذ اقترض مبلغا يدفعه ثمنا لعقد العمل الذي يسافر به، ووقع شيكا بدون رصيد، ومر عام ولم يفارق البلد ولم ينقطع عن شرب الدخان، وطالبته بالمال، وكان يحتج بأن الرجل أخذ المبلغ ولم يرسل العقد، فهددته بالشيك، وحدثت الخصومة، واضطر "رءوف" لبيع خروف كان يربيه في داره، وأكمل المبلغ بثمن

سوار ذهب كان لأخته.

وكنت – حين ألتقي به في مكان – لا أسلم عليه، وفي الغرزة أقعد في حلقة بعيدة عنه، وكان لا يطلب لي شايا أو قهوة حين أدخل.

وقال: "رءوف": ما حدش بيشوفك.

وكذبت: أفضل السهر في البيت.

وقال: "نشرب الحجرين دول واطلع على الشغل.. أشوفك الليلة".

قلت: يمكن أسافر العصر.

رفع "التهامي" إلى بندورتين فاسدتين هما عيناه، وناولني الغابة، فرحت أشد شدا متقطعا، ثم شدة طويلة أشعلت نارا بيضاء باهتة في الحجر المتقد، فضحك "رءوف" وأمسكني من ركبتي بود وقال: صباح الورد.

خرج الأسطى "فرج" بعربته البيجو البيضاء، ركنها أمامنا، وترك الموتور يعمل، ويخرج صوتا ضعيفا هينا، جعل السيارة تردد آهة طويلة ممتدة، نزل منها بعد أن أغلق الباب، وجلس أمامنا على صندوق "كازوزة" فارغ، وقال: والله زمان.

وردد "التهامي" موالًا قديما، فهمت منه أن يلوم الزمن الجائر الذي يفرق الناس ويجمعهم، كأنه يلعب بهم "السيجة".

قال رءوف: "التهامي" حافظ مواويل الدنيا.

قلت: عارف.

وقال: "التهامي" : حافظ مواويل الغلب.

وجفف ماء عينيه بطرف كمه، وكنت رأيته البارحة وأنا عائد من السهرة يخرج من ظلمة الجاراج زاحفا على بطنه فوق الماء المرشوش، و"الأخرس" فوقه يضرب بغل، يركله برجله، والتهامي قاطع النفس، يتلوى كثعبان مبتور الرأس، يخرج صوتا ميتا وبعيدا كأنين يتردد في مقبرة، يرفع يده يحاول الدق على باب الجيران المسدود ولا أحد يرد استغاثته، وأنا مررت عليهما، وخفت من "الأخرس" فلم اقترب، كان منهكًا من الضرب، وعيناه مبرقتان كعيني عفريت، تذكرت هذه الواقعة، وذكرتها لهم، فقال "التهامي": ربنا ياخده. وقال "رءوف": كل ذي عاهة جبار.

وفي هذه اللحظة دخل "الأخرس" زاما شفتيه تحت شاربه الطويل، وذقنه كانت بارزة إلى أمام في تحد، ونفض يده الطويلة القوية بتحية خاطفة مصاحبة بغمغمة من تحت

أسنانه، ثم دخل على الفور، فأغلق المذياع.

وبدأ يرفع الكنكات والأكواب بعصبية، ويزوم كالكلب الغاضب، فانكمش "التهامي" في معطفه. وقال الأسطى: "افتكرنا القط جه ينط".

وقال رءوف: هات خمسة تاني.

فأشار "التهامي" بأصابعه الخمسة للأخرس الواقف على النصبة، ضمهم ثم فرجهم، فهز "الأخرس" رأسه دليل الفهم ثم قام "التهامي" يرش ماء الجوزة على تراب الوسعاية، غمز لنا بعينه من بعيد، وأكمل الموال الذي كان يردده.

المحروم

قامت عن فراشها، وسحبت جلبابها الملقى على الأرض، وارتدته على قميصها الأبيض الذي يبدو منه عري أكتفاها وصدرها الكبير في النور المنبعث عبر قضبان النافذة، ولمت ثدييها في أكياس المشد الملتف على رقبتها، وأعطاها زوجها ظهره، وانسحب جهة الحائط طاويا الوسادة على وجهه.

ومدت الغطاء الخفيف على عريه المبلل.

واتجهت إلى النافذة لتلتقط أنفاسها، ونفثت هواء صدرها دفعة واحدة، فراحت تروح على وجهها بكفيها، وأغرتها لمعة الماء على القلة الموضوعة بين قضيبين، فارتكزت بركبتها على حافة السرير، ومطت بدنها فصدر عنه طقطقات كتمزيق ثوب قديم.

ورفعت القلة إلى أعلى ليسقط ماؤها في خيط فضي يبرق في نور عمود الشارع. ويتلقف الفم بعضه. ويسيل الباقي على الصدر متخذًا فلقة النهدين مجرى له. وسمعت الباب القديم للحوش، يزيق، ويفتح بحذر، وأطلت بعين واحدة، فرأت الشجرة الكبيرة تسقط أخيلة أغصانها على بركة

الطلمبة، والكون – المحاط بسور قصير – ساكنا إلا من خربشات الدجاج، وصياح الديكة الذي يتردد من الحظيرة البعيدة.

ولم تصدق عينيها لما رأت الباب الصغير، ينفتح، ويرتكن على جانب الحائط، ويظهر من بين ضلفتيه شبح قصير بجلباب أبيض ووجه ملثم بطرحة سوداء، وتعدى الشبح ظل الشجرة إلى النور الخفيف المنعكس على جدار "الفراندة" وشدت قدم زوجها الغارق في عرقه: قم شوف من دخل الدار؟

وتململ الزوج، ورفس رجله في ظهر السرير، وأعاد ضبط الوسادة على أذنيه محاولاً استجلاب النوم.

وفتحت باب حجرتها بحذر، وقطعت الصالة الصغيرة بالعرض، وانحنت على الفتحة بين ضلفتي باب "الفراندة" لترى شبح "عزيزة" يفتح حجرة الجلوس، صرخ بابها بقوة، فدخلت بكتفها لتتفادى الصوت، واختفت بالداخل بعد أن جمعت طرف الطرحة الذي اشتبك بمسمار القفل، فخبطت صدرها المبتل فزعة: يا ليلة سوداء وعادت "سكينة" بظهرها، عبرت تحت المذياع المربع في صمت فوق رف

الخشب، ودخلت إلى الصالة الكبيرة، وطرقت أنفها رائحة نوم الأولاد المكدسين في حجرتهم مع الجدة الكبيرة، ومرت على مدخل حجرة الفرن. نظرت بطرف عينها، فلمحت جرمه الضخم، ووجهه المسود، وفمه المظلم المفتوح على آخره، فخفق قلبها قليلاً، ورأت ظلام الزريبة الممتدة في عمق الدار، وسمعت خوار البهائم، وصوت اجترارها المتقطع وشمت أنفاسها المحمومة في سماء الصالة، وانحنت على خرم المفتاح للحجرة القريبة من الباب الكبير، ورأت "روايح" مستلقية بقميصها الداخلي في نور الشارع الساقط من النافذة على بطنها المنتفخة.

وترددت في الطرق على الباب.

وقالت لنفسها: أقول لـ "أمينة" أحسن.

وقامت "أمينة" تبص من بين الشلفتين، شعرها المبلول يقطر ماؤها على كتفها المسدل عليه شال قطيفة أسود، ومالت بجذعها إلى الخارج، وهمست في أذنها، وبانت الدهشة على ظلال الوجه الفائح برائحة الصابون المختلط برائحة سيجارة يتلوى دخانها خارجا من ظلمة الحجرة.

وقالت لها "أمينة": أخاف لآخذ برد.

وردت عليها مشجعة: الجو صيف.

فطلبت منها الانتظار حتى ترتدي هدومها.

وركنت "سكينة" بظهرها على الحائط تنظر إلى أشياء الدار الصامتة.

"هكذا إذن، أرادني بديلاً لـ "عزيزة" الخادمة، قضى الأيام الأخيرة لا يرفع عينه عني، ترك عمله في حقل أبيه، واختلق الحجج ليبقى حول النسوة في الدار، وهو الذي يبدي الخشونة في سلوكه معنا، يظن نفسه خليفة أبيه الذي التهى بزوجته الجديدة عنا كان ذائبا في نفسه، ويقف مرتعشا، حين دفع بابي ليلة بات فيها زوجي ساهرا على القطن المجموع بالقرب من الزرعة، ودفعته خارج الحجرة، وهو يكتم فمي بيده؛ لأني هددته بأني سأصوت، وألم عليه كل النائمين في الدار، وانسحب كالكلب الذليل جامعا ذيله تحت بطنه، ولما قصصت ذلك على زوجي قال بتهاون: يا شيخة.. أنت تبالغين.

وأنا أعرف أنه يخشى أحابيله، وحججه العاقلة التي لا تنتهي، ويعرف مكانة أخيه الصغير لدى الأب الذي يعامل الولدين الكبيرين كشغيلة أغبياء، والآخر يأكل بعقله حلاوة،

ويقدمه كأذكى الأبناء، الحريص على المصلحة، الفاهم لعمل الغيط، الداخل ببوزه في كل أمر، إصلاح السواقي والمحاريث، تخليص الأموال المتبقية في الجمعية، السفر إلى المدن لشراء ما يلزم الأرض.

ودائما يردد: "حسن " ابن أبيه.. على حق.

وآخر ما أظنه أن يحوم حول "عزيزة". المرأة البائسة التي تترك دار زوجها العاجز لتساعدنا في ملء الجرار، وكنس الدار، وفي الخبيز، وفي الغسيل، وتطليع الحطب على السطح، والذهاب بغداء الرجال إلى الغيط.

ولكنها مقصوفة الرقبة كيف تطاوعه؟

ما باليد حيلة! ماذا تفعل المسكينة في مواجهته، إذا أعلنت أنه يراودها عن نفسها، سيكذبها ببجاحة، ويتسبب في قطع لقمتها، فالأب دائما في صفه، على الحق والزور".

وسمعت "أمينة" ترد على زوجها هامسة، وسمعت جملته القاطعة: خلينا في حالنا.

واستدارت "أمينة" إلى باب الحجرة لتغلقه، وقبل أن تفعل، دخلت برأسها لتقول لزوجها: ستظل نعجة طول عمرك.

ولفت الطرحة على وجهها، وضبطت سفرة الجلباب على

صدرها، وتكلمت بصوت خافت: تقول لامرأته؟

وقالت "سكينة" وهي تصطنع ارتعاشة الخوف: أنا خايفة.

وردت عليها "أمينة": يا عبيطة.

واتجهت إلى الحجرة التي ترقد بها السلفة الحامل، وطرقت بأصبعها طرقات خفيفة لا تصل إلى أذن الجدة النائمة، وسمعا: من؟

بصوت بعيد، حجزه البلغم، ونادتا عليها من الخارج، وسمعتا أزيز السرير العالي، وهي تهبط منه، كما سمعتا حفة الشبشب على الأرض المبلطة بالأسمنت وفتحت "روايح" الباب وهي ترفع خصلات شعرها المفكوك الذي التصق بعضه على الجبهة المبللة، وحملقت مستغربة، ومالت عليها "أمينة" وقالت بطريقة تظهر حرصها على مصلحتها: "عزيزة" تسحبت من دارها، ودخلت الحجرة التي ينام فيها زوجك.

وانتفضت "روايح" ولكنها ضبطت انفعالها على آخر لحظة: كلام إيه ده؟

وصمتت لفترة، ورفعت صوتها لتقول: امشي يا امرأة أنت وهي جئتما على آخر الليل لتقولا هذا الكلام الفارغ.

قالت "أمينة" وهي تنسحب بظهرها: ذنبك على جنبك.

ودفعت "روايح" الباب في وجهيهما، ولم يجدا مفرا من تساق السطح، فاتجها إلى حجرة الفرن حيث الدرج الطيني.

كان القمر واقفًا على السطح يملأ بنوره المكان، فاختفيا وراء الصومعة، وفجأة مالت "أمينة" على سلفتها لتقول لها: تصدقي أنه حاول معي من كم يوم.

فضربت "سكينة" صدغها مرات عديدة، وهي تشلشل، وسألت: وماذا فعلت؟

قالت: سحبته من أذنه وأخرجته كالخروف من حجرتي، وكنت أستطيع أن أفعل به ما أريد، وقلت يكفي أني كسرت عينه.

قبل صلاة الجمعة، جاء الأب من داره الصغيرة. في قميصه وصديريه المزهرين، قعد على ركبتيه وسط الصالة، وصرخ مهددا، فانتفض قلب المرأة العجوز، وتجمع الأولاد الثلاثة حوله، يصبحون أذلاء، بنظرات منكسرة، رجعوا بظهورهم إلى الوراء مستندين على الحائط، وخرجت زوجاتهم، ووقفن إلى جوار أزواجهن، يتفادين النظر إليه، وظلت "روايح" رافعة بوزها في شموخ متهالك.

وصرخ الأب مرة أخرى: ما هذا الذي سمعته على الصبح؟

وأشار إلى "سكينة" فقالت بصوت أبحه الخوف: والله يا سيدي هذا ما شفته وأحاف على الختمة.

وقالت "أمينة" بجرأة "شهادة تدخل معي قبري".

ونطقت "روايح" مدافعة عن زوجها الذي وقف راميا ذراعيه إلى جنبيه بإهمال: هؤلاء النسوة يتقولون على زوجي، وهو بريء من كل ما نطقن به؛ لأنه كان نائما معي على هذه الكنبة طول الليل.

وأشارت إلى حجرتها..

ورد "حسن": لقد عدت بالأمس مبكرا عن كل ليلة، ودخلت حجرتي، ولم أخرج منها حتى طلبتني.

ودخلت "عزيزة" من باب "الفراندة" البعيدة يحجز شبحها القصير النور القوي، كانت تميل برأسها على شاش أسود، ودخلت بخطوات حذرة، ثم وقفت حين التقت بالجمع.

وانتبه إليها الأب، ونادى عليها بصوت سيب مفاصلها: تعال يا بنت.

ودخلت بسحنة بريئة طيبة، وسألها الرجل بحزم: أين قضيت ليلة الأمس يا امرأة؟

وارتعشت أجفانها قليلاً حين التقت نظرتها بالواقف أمامها بكرشه المنبعج تحت الصديري.

وسحت عين "عزيزة" الدمع، وانحنى رأسها إلى الأرض.

واحتارت كثيرا قبل الرد على سيدها.

الرشح

حيوان فطري بألف شكل وألف رجل، يأكل كل يوم من طين الحائط، يتمدد بلا نهاية بتكويناته البشعة، الرشح، والغطاء الهادئ عليه.. والمصباح المشنوق على الجدار، "الطاقة" تضم أشياء كثيرة، عدة الشاي جافة في الركن، الرشح يرتفع ذراعا.. والباب – الموارب – المؤدي إلى الفسحة الضيقة المطلة على الشارع منفذ وحيد للضوء الضئيل.. بعنف، لم يعد يخرج النفس الممزق. هن حوله بثيابهن السود، مصمصت إحداهن شفتيها المكرمشتين: الله يرحمك يا أبو أمين.. كنت طيبا.. نهنهت عزيزة.

انبثقت من عينيها دمعة من القلب ساخنة، بردت حين تفرقت في تجاعيد الوجه.

- دنيا.

قالتها أخرى بصوت خشن، بعد فترة تأمل طويلة، تفحصت فيها الأمور ثم استنتجت.

ارتفع صوت الوابور في معمل الجبن، فألغى جو الموت، تململت كل النسوة القابعات، عزيزة منفلقة على حزنها، كان

الشرش ما يزال يرسل رائحته القابضة من الحفرة أسفل الجدار.

- أين حمودة؟

- راحت سميرة لتأتي به.

أجابت حين رفعت وجهها لتمسح المخاط والدمع معا.

كانت السنطة العجوز التي تظلل خارج الدار تعلم أن أحمد أبا أمين حين لم خيشته وجمع أدوات شايه وجوزته لن يعود، وأن نزاعه مع محمد أبي ثابت كان منتهاه البارحة، وأن الصبية ونساء الحي لن يعودوا يستمتعون بصرخاته وتهديداته التي تذهب في الهواء، ولا بمحاولته الدائبة للهجوم على أبي ثابت الجالس على كرسيه فوق الطوار بجلبابه الكشمير ونظارته السوداء يواجه الهجوم بالسخرية.

ورغم أن الناس يعلمون أن حجرة أبي أمين الوحيدة خمرها الشرش وأن العيشة فيها لم تعد يحتملها كاب، كانوا يكتفون بتحريضه، أو ينصحه أحدهم: بلغ المركز.

- لا فائدة. يرد أبو أمين باستسلام مرير.

- رجل ليس عنده رحمة أو إحساس.

يضيف: بغل، يحمر معه وجهه، فيكح في تواصل حتى لا يكاد ينتهي في يومه، لكنه ينتهي حين يجمع البلغم ويتفله، كذلك يفعل حين يشد نفس الدخان.

لم يجده أمام الموقد يصنع الشاي ويدخن، لم يلق عليه السلام، ولم يتلق الرد بكحة قوية متواصلة، وجده قابعا تحت السكون، كان حمودة يحب أباه، تقدم خطوة، واعتصر جسمه في دمعة، انكفأ عليه وقبله، ثم جلس كطفل، طيبت النسوة خاطره.

كلنا لها.

حمودة كان البكر، آثر في صباه جمع أغطية الكوكاكولا والنوى عن حفظ القرآن، وأتقن في سن مبكرة الشعبطة بالقطارات، وحين تمرس في ذلك وغوى السفر التحق بموقف السيارات مناديا، ولما هضم الصنعة ركب سيارة أحد الجيران.

كان وأبوه صديقين، في سني عمره الأولى استطاع أن يدخن السيجارة أمامه، ولما كبر رضي أبوه عنه طالما كل مساء يدس في يده سِنة الأفيون.

اعتقد الجيران أن حمودة يستطيع أن يركب القطار يوما

ولا يعود، فاليوم لا ينقضي دون أن يعصى أباه في الذهاب إلى سوق الضواحي ليبيع الفسيخ، فيبرك عليه أبوه ويضربه ضربا مبرحا، يجعر حمودة، ولا أحد ينقذه من الجيران لاعتيادهم ذلك، في النهاية يستطيع أن يطرح أباه أرضا ويفر.. بينما يقف أبو أمين ينهج ويتوعده بحرمانه من خبز الدار بعد اليوم، ويهدده بالقتل إن حاول العودة، وما أن يحل المساء حتى يكون حمودة قد فرغ من لعبه فيئُوب إلى الدار، ويجلس إلى جوار أبيه ببرود.

(واستطاع في صغره تلطيخ قميص ابن أبي ثابت بالطين أكثر من مرة، وحضنه بعنف من الخلف، فاعتقد الولد بأنه لا بد عازم على أمر قبيح فاعتزل اللعب، واكتفى بالفرار كلما رآه في الشارع بملابسه القديمة.. كان حمودة يتألم حين يسمع أباه يشكو للناس ظلم أبي ثابت).

صوت ماء يدلق بقوة، الرجل يصب في خزان العربة بإهمال، الشرش ينحدر بسرعة من الأرض المرتفعة عند البئر نحو الباب، تكونت بقع واسعة، أصابع السائل الأبيض القابض تخمش في الأرض نحو كل الاتجاهات، وكل الأبواب، حمار عليه نقلة سباخ كاد ينزلق، اكتفى صاحبه

بسب أهل صاحب المعمل ومن نفضه.

وقف حمودة محتقن العين، أسند يده على الجدار، وفي البداية آثر الهدوء.

- يا عم محمد ألا ترى الشرش قد دخل علينا الدار؟!

- ....

لم يتحرك عن كرسيه، على وجهه كانت نظارة شمس.

- ألا يكفي ما نحن فيه؟!

- ... ...

- ألا ترحم؟!

- كف عن الكلام.

اتجه حمودة مشمرا جلبابه نحو الدار المقابلة.

- أنا أُشهد عليك الناس.

لا أحد يدري كيف جلب أبو ثابت ماله الكثير، قيل: "إن خاله حين كان يقطع الزريبة، عثر على جرة ملأي بالجنيهات الذهبية؛ ولأنه لا يعرف ما الذهب حملها إلى ابن أخته، فزعم أنها مجرد معدن زائف، وجعلها لنفسه".

وقيل: "إن عمله الأول في الشونة هيا له السرقة، فجمع

من الحكومة المال الكثير، استطاع أن يرشح نفسه عن البلد، ويفوز بجدارة، اشترى الأراضي بالضواحي، وشارك في أكثر من بهيمة، كسب الكثير من الجرار الزراعي وآلة الدراس.. على الرغم من ذلك تفرغ لمعمل الجبن ليغازل النساء، وليجلس في ظلة داره يشرب الشاي ويدخن السجائر في استرخاء".

وقف الرجل جنب حمودة، وقف فلاح بخلعته راسخة رجله القوية في الأرض، ومن يده فرك بقايا طين علقت بها، بدأ الكلام.

- ماذا نفعل في هذا الشرش الذي دخل علينا دورنا يا أبا ثابت؟
- لا أعرف.
- الدار ساحت.
- أردمه.
- كل مرة نردمه.. ولم لا تنصح بحمله بعناية؟
- أتأمرني يا فلاح!
- ولم لا؟

- والله عال.. لم يعد إلا أنت يا جلف.
- ومال الفلاحين؟ (قالها جار خرج من داره، محاولة منه للمشاركة).
- اسكت.
- لا.. زدت عن الحد.
- ماذا تريدون بالضبط؟
- تبعد عنا وساختك.

توقفوا عن النزح، ضرب الحوذي ظهر البغل، شد العربة بخطفة قوية، تدفق الشرش غزيرا على الأرض، نزل بسهولة من جهة البئر، فوق الأصابع الطينية الممتدة في كل اتجاه، اتجه معظمه نحو دار أبي أمين.

خرجت عزيزة بجلبابها الأسود، ضيقت عينيها حين واجهت النور والرجال، وحمودة كله رغبة في تكسير أي شيء، واتجهت بنظرها إلى أبي ثابت الجالس في عدم اكتراث..

- يا عم محمد.. حرام عليك.
- ما عاد إلا أنت يا امرأة.

- ما لها؟ سأل حمودة بحنق.

- خادمة كانت تعمل عندي، طردتها حين سرقت.

خطت قدمان إلى الأمام بثبات، نحو اتجاه معروف، داست على الطين بقوة، تبعتها أقدام أخرى بنفس الثبات، الدم الحار فيها رغم الوحل، اجتازت عتبة أبي أمين ودون أن تنزلق صعدت المرتفع عند البئر نحو الطوار، بعد فترة من عبورها كان جسد طري يلقى في الوحل.

ضحكة الملائكة

-١-

اتجهوا نحو الطريق المسفلت حينما خرجوا من الجامع الذي يقع على أطراف البلد على يسارهم كانت "الساحة" ينتشر على بساطها الأخضر أولاد يرتدون فانلات ملونة موزعين على ألعاب مختلفة، وعلى يمينهم كانت الشمس الكبيرة الصفراء تتوارى خلف أشباح النخيل البعيدة، وكانت شمس أخرى تبرق على شريط السكة الحديد الموازي للطريق المسفلت، كانت هذه الشمس تسير معهم ببطء.

-٢-

نظر واحد منهم إلى الوراء، ولم ير غير التراب، الذي أثارته الدواب في رواحها – على بيوت البلد وسور السكة الحديد ومبنى المحكمة القديم، انضم إليهم فجأة، بعد أن انحرف بعيدا عن الأسفلت ليتفادى سيارة أقبلت مسرعة جعلته يثير زوبعة صغيرة من التراب النائم، وهم أيضا تركوا الأسفلت وساروا فوق التراب تحت الشجر الصغير

المحوط بأقفاص من جريد، قال واحد للآخر الذي يرفع على ذراعيه المنتصبتين اللفة الصغيرة المسدول عليها "باشكير" نظيف: خلي عنك شوية. رفض الآخر وقال مصمما: خلاص.. هانت.

-٣-

بعد قليل تركوا طريق الأسفلت كما تركوا الكوبري المسور بالحديد وساروا بمحاذاة الترعة التي تنحرف بشدة جهة القرافة، وقبل أن يعتدلوا تماما في الطريق الجديد نظروا جميعا مرة واحدة إلى أعلى الكوبري فلم يروا غير السيارات التي تمرق فجأة، والشمس التي توقفت بعناد على شريط الحديد ولم يسمعوا غير صوت الموتورات المتفجرة وصياح الأولاد وراء سور "الساحة" والنسوة المجتمعات على الحنفية العمومية تركن الماء يتدفق في فوهات الجرار وسترن سيقانهن العارية ووقفن متأملات. وكانوا قد فقدوا الأمل في مجيئه تماما حينما استقبلوا الشواهد القابعة في سكينة.

-٤-

ساروا وسط التراب الثائر بين الشواهد في شوارع

صغيرة ضيقة كانوا يمرون على مصاطب كثيرة بها فتحات مظلمة، عميقة الغور، ومجهولة. وهناك في البعيد تحت الشجرة التي لبدت فيها الطيور الصائحة في صخب رأوا لمعة قفطان الشيخ ورأس الرجل الذي عقد خصره بحزام عريض، لما اقتربوا منهما قام الشيخ ونفض القفطان فانهال كثير من الورق الجاف ومد يده إلى اللفة الصغيرة وقال لحاملها: تأخرتم.

ومد له يده بالباشكير الذي رفع عن الجسم الملموم في كفن أبيض يحدد تكويرة الرأس وانتفاخة البطن وانتصابة القدم، وقال واحد من الرجال: كان لا بد أن تنتظره ولكنه لم يحضر.

ونزل الشيخ إلى الحفرة بحذر والرجل الذي عقد الحزام العريض على بطنه نزل وراءه وظل منحنيا مدة طويلة وعيناه مركزتان داخل الحفرة، أما الرجال الذين انتشروا على السور الواطئ فقد جلسوا يرقبون من بعيد وكل واحد منهم يرى جانبا من المشهد الذي يحدث بالداخل، ويتسمع لتراتيل الشيخ التي تأتي مكتومة متعجلة.

-٥-

وقف واحد منهم حين رأى الرأس الأسود المتحرك وسط رءوس الشواهد الجامدة وجعل نظره مثبتا على بقعة السواد الغائبة في شحوب المغيب، ذلك أن الشمس كانت قد انتهت كلية، ولم يتبقَ من أثرها غير بقعة الدم الحمراء الكبيرة المعلقة على جانب سحابة سوداء.

وقال فجأة: أظن وصل.

فقاموا جميعا ينظرون ثم قالوا معا: هو.

والرجل الذي عقد الحزام العريض على بطنه كان قد وقف حين وقفوا، ولما سمع تأكيدهم انحنى جهة الفتحة وقال للشيخ: انتظر.

-٦-

ظهر الجسم كله طويلاً وسط المصاطب، ضائعا بين الشواهد واقترب منهم فوضحت ملامحه المرهقة ولما دخل الحوش الضيق ارتمى في حضن أول رجل وراح ينتفض في بكاء مكتوم، والآخر الذي احتضنه ظل يربت على ظهره ويشده إليه بقوة ثم رفعه أمامه وجعل الوجه في الوجه وقال له بثبات: اجمد.

-٧-

قال الرجل الذي حضر لتوه وهو يسحب منديله الخارج من جيب البنطلون: أشوفه فشده الرجل نحو الحفرة، وقال واحد من الآخرين: طبعا لازم تشوفه.

وأشار إلى صاحب الحزام العريض فانحنى في الحال جهة الفتحة وسحب منها اللفة التي تهدل قماشها الأبيض من كل الجوانب، فبدا الوجه الصغير الذي تشرب لون الغروب، كان جامدا على بسمة ذابلة كتلك التي تحدث للأطفال في نومهم وتقول عنها الأمهات أنهم يضحكون للملائكة الذين يلاعبونهم، ضمه الرجل بقوة إلى حضنه وقبله كثيرا على جبهته وعلى خديه وفوق أنفه، ولم يتركه حتى أخذوه منه غصبا ليعطوه للشيخ الذي قعد متململاً رأسه بالخارج وباقي جسمه العجوز داخل المقبرة.

-٨-

لما أهالوا عليه التراب كانت الظلمة قد حطت ثقلها فوق الشجر وسكنت الطيور ومن جهة البلد ظهرت مصابيح متفرقة نورها قلق وضعيف.

والأب الذي جاء متأخرا ظل منكفئًا على المصطبة فوق الفتحة بالضبط وهم كانوا قد تركوه لحاله وظلوا في جلستهم فوق السور الواطئ عاقدين الأيدي على صدورهم، والشيخ كان قد ارتدى جبته وعقد شال عمامته، وجلس ممسكًا المسبحة الطويلة بيده ومن حين لآخر ينظر جهتهم ويتنحنح.

الغائب

لما اقترب موعد القطار، تركوا البنت الصغيرة مع الجارات في الدار، وسارت الأم الكبيرة في المقدمة، تعدل شاشها على رأسها، والولد الصغير انتظر حتى فرغت يدها فأمسكها وبدأ يجري من جديد، ووراءها الرجال يخبون في الجلابيب النظيفة، وقد لفوا الشيلان حول الوجه.

عند أول الشارع أرسلت السماء رخات مطر متفرقة، أنامت الورق الذي تحركه الريح الشديدة، ووقفوا تحت مظلة الرصيف ينتظرونه.

حين دق جرس "البلوك" نظروا جهة الجنوب، ورأوا القطار يظهر على أطراف البلد صغيرا، ورأوا البوابة الحديد يتقاطر منها ماء المطر مستكينة على الجانبين.

ودخل القطار بأنفاس مقطوعة، يطلق الدخان، والضجيج.

حملقت عيونهم في النوافذ التي تترى، كانت تطل منها وجوه لا يعرفونها، والأم الكبيرة سارت بمحاذاة العربات حتى توقفت تماما، وزيقت عجلاتها بصوت يرعش البدن.

نظرت إلى الخلف حتى لا يفوتها باب، ورأته ينزل بين

جنديين في البدل السوداء الثقيلة.

وصرخت: عبده.

واندفع معها الرجال حتى أحاطوا به في حلقة ضيقة مخنوقة.

ورفع رأسه إليهم مبتسما بوجهه الأحمر الملفوف بشال الصوف الأبيض.

اقتربت منه، ولفته بذراعها: عبده.

مد لها يديه المربوطتين بالحديد، وسقط منها الشاش وهي تقبل صدغه وأكتافه، والرجال داروا حوله متلهفين، يدخلون الحلقة، الرجل بعد الآخر يحتضنه.

و"محمد كان بعيدا ينظر باندهاش، واقترب بخجل، رأته أمه، فأمسكت ذراعه وقدمته لأبيه: محمد يا عبده.. محمد .. كبر.

سألها: فين سيد؟

فبكت..

والجنديان أزاحا الحلقة بهدوء، قال الجندي صاحب الشريطين: الصبر يا جماعة.. لسه فيه إجراءات.

وقال الآخر: لازم نوصل المركز.

وسأل واحد من الرجال: حطول.

قال الجندي: ساعة.

وسحباه إلى السلم الهابط إلى الشارع الكبير، نظر إليهم من وراء ظهره، فانزاح الشال لتبدو لحيته الكبيرة البيضاء المتصلة بالشارب الذي اصفر من الدخان.

أقبل مع الرجال بعد المغرب، رأته الجارة الواقفة على باب داره، أرادت أن تطلق الزغرودة، فشدت الأم الكبيرة ذراعها، وسدت فمها، صاحت في وجهها: عيب كدا.

دخل داره وسط النسوة المجتمعات في الصالة، وهتفن: نورت مكانك.

والبنت الصغيرة أمسكته من الجلباب، فانحنى عليها يقبلها، وفتحوا له باب الحجرة الدفيئة المفروشة بالحصير الجديد.

قعد الرجال تحت الجدران، وقعد هو هناك تحت النافذة، فوق المرتبة المخططة بالعرض، خلع شاله، ومسح به وجهه، ومحمد قبع في الركن يحملق في وجه أبيه، وقعت عين الأب على الصورة المعلقة بدون إطار إلى جوار رف المصباح،

بلع ريقه. ودارت عينه في وجوه الرجال، فخفضوا رءوسهم، أما هو فقد شم رائحته، وأحس بأنفاسه تتردد إلى جواره، ورأى وجهه بين الخيالات الممتدة على الحائط، وأحست يده ملمس كفه الصغير حين كان يرفعه ليعبر العتبة التي تجلس عليها أمه تتفادى النظر إليه، وتتشاغل بالحديث مع النسوة الزائرات.

دخلت البنت الصغيرة بأكواب القرفة، ودارت بها على الرجال قالوا لها: أبوك الأول.

رفع يده إلى الكوب الذي يخرج منه الدخان خفيفًا باهتًا، وأدام النظر في وجه البنت، ثم انتبه للترمستين النابتتين في صدرها، قال لها: إزيك يا زينب.

وطبطب على كتفها بحنان.

والأم الكبيرة ظلت على العتبة تحادث النسوة القاعدات جنب حوض الزير.

قالت: نهنيكم في الأفراح.

ومسحت بظاهر يدها دموعا سقطت على خدها.

بعد أن شربوا القرفة، قام واحد من الرجال ينفض ظهره، فسقط ظله طويلاً ممتدا إلى الجدار المقابل. قال: تصبحوا

على خير.

ومد يده إلى الأب، فقام من بعده الرجال قالوا: نورت مطرحك.

فوقف الأب يسلم عليهم، وسار معهم إلى باب الدار، والنسوة تفرقن من الحلقة حول الأم الكبيرة وسرن مع الرجال، همست واحدة في أذن الأم: صبريه يا أختي.. الله يكون في عونه.

قالت الأم: ربنا يصبرنا.

شبت البنت الصغيرة إلى الترباس، وأغلقت الباب، وعادت تدخل الحجرة، فرأت محمد جنب أبيه يحادثه، وقفت حائرة، ثم اندفعت لتنكمش فوق المرتبة، تحت يد أبيها.

الرجل الأخير

ظهر هذا الرجل فجأة جالسا على طوار المقهى المفتوح على الدار المقابلة، وأصحاب هذه الدار – على ما يبدو – كانوا مشغولين بأمر خطير، فقد شوهد – في هذه الأيام – الأطباء يدخلون ويخرجون، وها هو الطبيب العجوز يدخل من بابها، وفي أعقابه الابن الأكبر لصاحب الدار حاملاً الحقيبة الجلد المرتقة بخيط غليظ في أكثر من موقع، ولما ترك الباب مواربا لمدة وجيزة، أهمل الأولاد والجالسون في مدخل المقهى ما بأيديهم ليروا ظهر الطبيب، وهو يعبر الردهة الصغيرة، واختفاءه وراء الستارة الخضراء التي تحجز الردهة الكبيرة، ومن بين قطعتي الستارة المسدولة، رأوا البنات في جلابيبهن السوداء، وقد فزعن لمرآى الطبيب وقمن ليقفن في حلقة فوق الحصير المفروش، ويمسحن وجوههن بمناديل صغيرة.

وعادوا مرة أخرى إلى أكوابهم وجوزهم ونردهم.

أما هذا الرجل الملفع بعباءة سوداء والذي يبرز عنقه المعروق من بين طياتها المكدسة على الكتف، وتتحرك من

تحت ذقنه المنثور عليه شعرات رمادية تفاحة آدم كلما بلع ريقه ظلت عينه الساهمة مثبتة على الباب الذي أغلق من حين، واحد لم يكن يراه جالسا على هذا المقهى أبدا، ولكن الواقف كان يلحظ عبوره كل عشاء مقبلاً من الدار الجديدة التي أجرها هناك بآخر المدينة بعد أن ودع ابنه الوحيد في الدار القديمة، وذرف الدمع على زوجته التي انسحبت منه بهدوء، حين عاد ذات صبح من صلاة الفجر؛ ذلك أنه نادى عليها لتعد له فطوره، لم تجب على ندائه، فقام إلى فرشها، ووجدها باردة بوجه هادئ لا يتردد فيه نفس، وظل بعدها وحيدا، يراه الناس محنيا تحت ثقل العباءة السوداء التي اعتاد عليها كل فصول السنة.

ومن يومين أو ثلاثة اعتاد صاحب المقهى حين يراه داخلاً عند منعطف الشارع أن يتقدم إليه، ليجر له كرسيا، ويضعه فوق الطوار منعزلاً في المكان الذي لا تنقطع عنه قطعة الشمس الساقطة من فوق الدار المقابلة ثم يدخل ليعد له القهوة السادة والجوزة التي يمد لها بوزه، ويظل ينفث الدخان من أنفه ومن جوانب فمه دون انقطاع، ويظل يطلق النحنحات العميقة والسعلات الممتدة التي يصحبها عادة كمية

كبيرة من البلغم، يتفلها تحت قدمه المدفوسة في جورب ميري سميك.

وصاحب المقهى كان يمكن أن يسمعه وهو يحادث نفسه، حين يمرق من أمامه شاب يبرطع بالموتسيكل، أو حين تفوت عليه صحبة من البنات الصغيرات في فساتين ملونة مرفوعة قليلاً إلى الركبة، وهن يطلقن الكركعات بصوت صاخب، وبلا حرج، وكان يسمعه وهو يدعو الله بأن يفضها، فيأمر "إسرافيل" فينفخ في البوق؛ لأن عباده تمادوا في الغي وذلك حين ينطلق الشخر من الأولاد المتحلقين على "الطاولة" أو حين يتمادون فيسبون الدين، بلا خجل.

ولما رأى هذا الرجل الباب ينفتح مرة أخرى، ركن الجوزة، وهبط الطوار ليتجه إلى الابن الأكبر الذي وقف يحادث الطبيب، ويحرك بين يديه ورقة صغيرة غامضة، كان الطبيب "برما" فاستدار بالحقيبة تحت إبطه، وهو يشير بيده الفارغة نحو الشارع الكبير، اقترب الرجل مترددات، ونظر إليه الابن متسائلا بوجهه المهموم، وكأنه يقول لنفسه: وهل هذا وقت طلب الإحسان؟

وتردد الابن، ولما رأى ارتعاشة تجاعيد الرجل، ورغبته

الصادقة، التي باحت بها الرقرقة الغائمة في العين الضيقة المخنوقة قال له: تفضل، وأشار بيده جهة الباب، بدون نَفس.

فجمع الرجل جلبابه من أسفل، وعدل وضع العباءة المبعثرة بإهمال ودخل وراءه بجنب، ولم يرفع رأسه عن الأرض حتى وهو يصدر النحنحة العالية المصحوبة بـ "يا ساتر.." وسبقه الابن إلى الردهة الكبيرة، وأعاد: تفضل. بتبرم، وبدون قناعة كاملة، وأشار بيديه الاثنتين معا إلى أخواته الجالسات على الحصير، فوقفن مرة واحدة، ولم يسقطن أغطية رءوسهن على عيونهن التي بحلقت في الغريب القادم من جهة الباب.

وسمع الرجل صوت الأم العجوز من وراء الطرحة المسدولة على الوجه وهي تسأل ابنها عنه، وسمع إجابة الابن الخافتة: ما اعرفوش.

وعبر الرجل الستارة، وخطا خطوته الأولى في الردهة الكبيرة، وقال موجها كلامه للأم الواقفة على رأس بناتها، وكأنه يخصها هي بالكلام: سلامته.. ألف سلامة.

وتشجعت الأم بعد أن تلاشى حرجها، ونظرت إلى بناتها لتمنعهن من الانسحاب إلى الحجرات الداخلية، وقالت له

وهي تضع يدها على كتفه: تفضل.. يا أخويا.. تفضل، وشق الرجل الغريب الأجساد الغضة، الدافقة بدم الحياة، الطافح على الخدود البيضاء الموردة وهو يبسمل، ويحوقل، مطلقا: يا ساتر. بصوت واهن متردد، واقترب حتى لم يعد بينه وبين حجرة الأب غير خطوة.

كان الأب على سريره الواطئ بقميص أبيض مفتوح الصدر، والأضلاع العجوز بادية على جوانب الصدر العاري من الشعر، ترتفع وتهبط مع النفس القوي الخارج من طاقتي الأنف المفتوحتين على آخرهما، والجفنان كانا منتفخين على العين المغلقة والتي سال من جانب منها خيط نحيل من الماء على صدغ الأب، والأب الفاقد الوعي أسقط عظام يد رفيعة كالحطبة إلى جانب السرير، مدلاة وحدها كأنها لا تنتمي له، جسد ميت وحده معلق بالباقي الذي لا يمتلك من مظاهر الحياة غير الحشرجة القوية التي تملأ الحجرة، ويتردد صداها في الردهة الخارجية، واقتربت الأم مرة أخرى من الرجل تحثه، وتربت على كتفه: تفضل يا خويا.. تفضل.

وتزحزح الرجل قليلاً نحو باب الحجرة، ثم فرد كلتا يديه على امتدادهما، وانفكت طيات العباءة حتى سقطت، وغطت

ظهره كله، ولم ينتبه الرجل إليها وانشغل بتأمل الوجه العاري من عمامته، ومن بهائه الذي ألفه، ولم يعثر على ابتسامة هذا الراقد، ولا على التهليلة المنشرحة التي يلقاه بها، فتراجع بظهره مرة واحدة، حتى داس أطراف عباءته، وكاد يسقط على الأجساد الحية التي كانت مستعدة لرفعه، وظل يرجع بظهره وهو مشغول بإخراج منديله الكبير المكور في فتحة الجلباب، وساروا خلفه وهم يسندونه، وتراخى جسمه الواهن منهم، وسقط على عتبة الحجرة المرتفعة، حاولوا أن يستنهضوه ليجلسوه في حجرة الجلوس وهو يأبى، وينخلع بجسمه منهم، فأمر الابن أمه وأخواته بأن يعدن إلى أماكنهن ويتركنه لشأنه حتى يهدأ تماما، وظل الولد واقفًا تحت الستارة عاقدا ذراعيه على صدره، وتجمعت البنات فوق الحصير، والرجل ظل على حاله دافسا وجهه بين ركبتيه العاليتين، وعباءته ظلت منثورة تحت أقدامه بإهمال، والبنات أخرجت مناديلهن المشغول على حوافها ورد صغاير ورحن يفركن بها عيونهن التي احمرت شرايينها الدقيقة.

كلبة سوداء في المقهى

١- اللعب خارج الدائرة.

٢- الآخرون.

٣- كلبة سوداء في المقهى.

٤- الغريبان.

٥- شجر صغير أخضر.

٦- الرجل ذو البطن المفتوحة.

٧- وش الفجر.

٨- الغناء ساعة الغروب.

اللعب خارج الدائرة

حينما ارتفع الصوت.. عجت مسالك القرية بالناس.. نحو الساحة اتجه الجميع.. بلا عناء أدركوا أنه قادم من هناك.

(لا الصغار تعلم، ولا آباؤهم يعلمون كيف كانت البداية.. كل ما في الأمر أنهم حين يسمعون الصوت يهرعون، وفي كل مرة رجل جديد، يتحلقون في نفس المكان وينتظرون).

عاري الصدر كان الرجل، تبرز عضلاته القوية، وشعر صدره الكثيف، كان أسمر، كذلك شعر رأسه القوقازي المهوش، زوجه على الأرض تضرب على دف كبير، وفي الوسط كان (قائم) ينتهي بطوق محوطًا بمدى وكرات مبللة بالكيروسين، وجراب يحوي أدوات لعبه.

على الأرض كان التراب ساخنا، وفوق، الشمس كانت تلهب الرءوس، والدور القديمة، والأفق الذي صعد منه الدخان بعيدا.

وضربات الدف صاخبة متتابعة، وقف الرجال والنساء – على رءوسهن أغطية. وبين الأرجل جلس الصبية يتطلعون بشغف، في زاوية من الحلقة تجمع بعض الشباب.

"إيه رماك على المر يا ابن آدم.. قال: الأمر منه". وراح يخرج من جرابه أدوية قال: إنها علاج لجميع الأمراض: الروماتيزم، والصداع، ووجع المفاصل، وتنقي الصدر، وتعالج البلهارسيا، والأنكلستوما، والسل، والسرطان.

- ولوجع العينين؟

سأل رجل، وضحك الشباب، وضع النقود في حجر زوجه، وبدأ يدور، طلب من الجمهور تصفيقة على وقع الدف، صفق الأطفال، وتحفظ الرجال.

لا يستعرض قوته ولا عافيته، وإنما أكل العيش هو الذي دفعه إلى ذلك، لديه من الأطفال ثمان غير أمه العجوز وثلاث أخوات يجري عليهن، والله هو العالم بأسرار عباده، وهو وحده القوي، فهذه الألعاب لا شطارة، ولا فهلوة، مسح حبات العرق بسبابته، بينما عاد ليؤكد أنه لا يجبر أحدا على دفع النقود، وإنما من أراد أن يدفع فليقف على رأسه ويتفرج، كذلك من لا يريد الدفع، فالمهم هو تقديم الألعاب، وأمسك برق قديم، دار به على الناس، تعلقت بالرق عيون الصبية، دفع أحدهم برجله ليأخذ النقود من رجل في آخر الصف، لم يتجه نحو جماعة الشباب، أدار لهم ظهره، حين أمسك

شعلة دعمها بالكيروسين من فمه، فتكونت كتل نارية في الهواء.

- قديمة.. (جاءت من وراء ظهره).

طلب تصفيقة جديدة، فجاءت متراخية.

تحدث الأطفال عما سوف يلعبه بعد ذلك..

كانت الكرات حول الطوق مشتعلة، قال: إنه سوف يقفز من بينها، وبلل صدره بالكيروسين، تناول دمية، أجلسها على فخذه، حدثها وحدثته.

- طلع اللي في بقك.. (قال فلاح شاب يستند على زميل).

علت الضحكات، فارقت الدهشة الوجوه بينما كانت بعض الفلاحات على الأسطح القريبة ينظرون في استغراب، كان في يده حبل سميك يشده بين يديه، قال إنه سيوثق بهذا الحبل المتين، في النهاية يفكه، لكن قبل أن يتم هذا ستدور زوجه، لتجمع ما قد تسمح به قدراتهم، دارت المرأة بالرق القديم. ولعنت الزمن الأغبر الذي رماهم على بلد فقير.

- ما تعدى من الطوق

غطى عليه الرجل بصوته القوي، نفخ أوداجه، وسال العرق غزيرا، طلب أقوى رجلين، في وسط الحلقة وقف فلاحان يفركان يديهما بخبث.

- بس أربطه على كيفي.

ارتفع الضجيج، وتناثر الكلام، وصوت الدف يعج في أنحاء القرية، قدم أناس آخرون، والفلاحان منشغلان بتقييده، أراد أن يكون الحبل فوق الكوع، صمم الشبان على أن يكون عند الرسغ، وأيدهما الجمهور، تماص، جعر مرارا، انثنى ظهره تحت الحبل، عشرات اللفات بين فخذيه وحول الذراعين والعنق، ودقات الدف ازدادت عنفًا.

- كل مرة كانوا يفكوها.

- يعني إيه رماهم على القرف، ما الشغل كثير.

- ألاعيبهم مكشوفة.

- نشوف آخرتها.

- يحرموا يجوا هنا تاني.

- وكل مرة يقولوا نعدي من الطوق. ولا يحصل.

والدف ضرباته عصبية، والرجل نام على الأرض

يضرب برجله، تكونت على جبهته بقعة من التراب الممزوج بالعرق، النار التي في الطوق كادت تخمد، وشملت المكان رائحة القماش المحروق، سال الكيروسين على الأرض، حين دفعه برجله من الخلف، صفق الصبية على وقع الدف، جاءت التصفيقة مترددة ثم ما لبثت أن قويت حتى طغت على الصوت المتوتر للدف "ارحموني".

واندفع الصبية داخل الحلقة، تلاهم الرجال، عم الغبار المكان، كان في الخارج بينما الفلاحان يشرحان كيف أوثقاه بطريقة جديدة.

الآخـرون

وقع هذا صباح الأربعاء، وكنا قد اجتمعنا في أرض السوق تحت ظلة (الجملون) بعد أن اصطاد كل واحد منا الكثير من الحشرة الملونة التي تقف بأمان على سور السور الجديد أو تحلق على أكوام السباخ المنتشرة حوله.

وكنا قد تحلقنا بين أعمدة (الجملون) نلاعب الحشرة المحببة إلى قلوبنا، منا من راح يدخل الريش الخفيف في ثقبها لتحلق به بين أعمدة الخشب، ومنا من ربط ذيلها بالخيط الرفيع وجعلها تطير حوله، وهو ممسك بالخيط، وبعضنا أدخر صيده ليبيعه للأولاد بنوى البلح. هذه هي أرضنا نحن أبناء كفر السوق.

نلعب بين السور الممتد من دار (أم علي) حارسة السوق حتى فاخورة (أبو نافع) البعيدة، نخرج من دورنا مع الشمس ونروح معها، والسوق يقام بين دورنا، وفي هذه الأرض، صباح السبت، ولا ينقضي حتى تتلاقى ظلال الدور، وحتى يمتد ظل مئذنة جامعنا من أرض السمكرية وتجار الأقمشة إلى أرض تجار السمك بآخر السوق.

نحن لا نلعب يوم السبت..

نقضي اليوم بين زحام الناس، في الصبح نتفرج على الحاوي الذي ينصب حلقته أمام الجامع بجوار تجار القلل والأباريق، ونلتف حول المداح نسمعه يحكي عن النبي والحسين والسيد البدوي، وبقرش السوق نشرب العصير من بائع العصير الذي يلف بين الناس بدورقه الكبير الراقد على كرشه، يفتح الصنبور ليدلقه فوارا وشهيا في أكواب طويلة من زجاج، أو نذهب إلى بائع البوظة الذي يمد الملايات البيضاء حول هياكل الخشب المقامة بوسط السوق، فننال كوز الصفيح المترع بالسائل الخمران.

لا ندري متى أقيم لأول مرة هذا الزحام الأسبوعي. ولما سألنا آباءنا وجدناهم لا يعلمون.

كنا نفخر بوجود السوق بحينا؛ فالناس من أحياء البلد أو من العزب المحيطة تنزل عندنا، وكنا – يوم السبت – نتعارك مع الولد الذي سبنا في شارعهم البعيد.

وجامعنا رغم أن اسمه جامع الإمام على – هكذا مكتوب في لوح الرخام المثبت على بابه – إلا أن الناس في كل مكان يدعونه "جامع السوق"، والناس في الأحياء الأخرى لما

يغضبوا علينا يسموننا: أبناء كفر الغجر، ولما سألنا الكبار.. قالوا: ليس لأننا (شاق) وإنما قبيلة من الغجر حطت بأرضنا في الزمان القديم، حين كانت أرضنا بورا.

وقع هذا صباح يوم الأربعاء، وكنا مشغولين بحشراتنا الملونة الطيارة حين دخل من بوابة السوق الكبيرة رجال يركبون الحمير، ويحملون البنادق.

تقدموا نحونا، نحو ظلة "الجملون".

نلعب تحتها كل أيام الأسبوع، يوم السبت يفترشها تجار الصيغة، كهول يأتون بحمير يربطونها بالأعمدة. معهم حقائب يفتحونها على الأرض، ولهم عدد دقيقة يرفعون بها القرط من أذن المرأة ليضعوه على كفة ميزان صغير تطيره النسمة الخفيفة – والجملون مرفوع على أعمدة من خشب طويلة، الأولاد الكبار يقدرون على تسلقها وهم يقولون: من يقدر على الصعود إلى سقف الجملون العالي، يحظى بقطع الذهب المدفونة بين القش والحجارة.

وهناك يعثرون على أكياس ملأى بقروش الفضة، ولكننا نحن الصغار حاولنا أكثر من مرة تسلق الأعمدة، ولكنا عجزنا وعرفنا فيما بعد أن الأولاد الكبار يدهنون الأعمدة

بالوسخ حتى يعجزوا الآخرين، فلا يصلوا إلى كنوزهم المدفونة بأعلى "الجملون".

توقفنا عن لعبنا، ورحنا نتأمل الرجال. الذين نزلوا عن مطاياهم وراحوا يقيدون أرجلها بالأعمدة وبالحديد المغروس بالأرض.

انكمشنا في طرف الظلة، وكتمنا أنفاسنا، حين رأيناهم يخلعون جلابيبهم ويعلقونها على هياكل الخشب التي يشغلها يوم السبت بائع البوظة، خلعوا الجلابيب، فإذا هم داخل سراويل سوداء وأحذية غليظة سوداء وسترات سوداء لها أزرار كبيرة صفراء تلمع في وهج الشمس على صدورهم وبطونهم، وعلى رءوسهم ثبتوا طرابيش تبرق منها قطع مستديرة كالقروش، وعلى أكتفاهم تضيء أطرافها.

سرنا جهة السور بخوف، بعد أن صاحوا فينا: العب بعيد يا ولد أنت وهو.. وانتشروا في الظلة مسترخين.

كنا وراء السور نمسك بقضبانه، حين أقبل الحصان الأبيض، يركبه الرجل الضخم بالشارب العريض.

وانتفض الرجال، وتجمعوا في صفوف متماسكة منتظمة، بينما – نحن – قبضنا بأسناننا أذيال جلابيبنا، نحو الدور.

لم نعد إلى السور حتى سكت غبارهم، وظهر الرجل الأكرش أمامهم يشير إليهم ويحادثهم.. قلنا: هذا كبيرهم.

وخفنا أن يأمرهم بهدم السور وهياكل الخشب ودار (أم علي) حارسة السوق، ترقبهم من نافذة دارها.

جلس الرجل على الكرسيّ، يطالع في دفتر، وهم – الرجال- ظلوا منتصبين في صفوف، الكتف في الكتف، والحذاء جنب الحذاء، والبنادق تلمع أطرافها.

تساءلنا: "أم علي" لا تطردهم.. هل تخاف بنادقهم؟

بعد أن طالع دفتره، صاح فيهم صيحة جفل الحذاء على أثرها فخبط جاره، وانتفضت البنادق لتنام على الذراع المشدود، وتلاها بصيحة استجابوا لها في خطفة، وراحوا يذرعون أرض السوق تاركين خلفهم زوبعة من تراب.

وكانت البنات قد طلعن الأسطح، وتوزعن بين القش وصناديق الحب يبحلقن من بعيد، فتشجعنا ودخلنا السوق نمشي وراءهم، حتى زجرنا كبيرهم.

حدثنا (أم علي) الواقفة في نافذتها:

- يا أم علي. قالت: العبوا عند دوركم.

- ولكنا نلعب هنا.. هناك عند الجملون.
- ولم تطردينا.

قالت: هم رجال الحكومة.

سألنا:

- هل يبقون هنا يا أم علي؟
- لكنهم سيأتون كل صبح.

وتركناهم لنتجمع على طوار المسجد، على غطاء المرحاض الأسمنت تحلقنا.

قال ولد:

- لن نلعب في ظلة الجملون.
- والكبار لن يتسلقوا الأعمدة.

وقال ولد:

- نضرب الرجال.

قلنا:

- لا نقدر.

قال ولد:

- نقوا للكبار أن رجالاً قد حلوا بالمكان ولن تصعدوا إلى ذهبكم.

- فيتحمسون لضربهم.

قلنا:

- للرجال بنادق تطلق النار.

- نموت فتسيل دماؤنا.

- ويرفعوننا في نعش إلى الجبانة البعيدة.

- ويأكلنا الدود.

قال ولد:

- بعد العشاء آتيكم بفأس أبي، ونحفر لهم الحفر، نملؤها بالماء ونرشها بالتراب.

- ولما تدور صفوفهم نحو الجملون، تندب فيها نعالهم.

- فيقعون الرجل وراء الرجل.

- ويخاف كبيرهم فيجري بعيدا عن أرض السوق، ولا يعود إليها.

وقال ولد:

- ونعبئ قراطيس الورق، نختفي في دورنا، وحين

يقعون في الحفرة، نطلقها عليهم، فتعمى عيونهم.

وقال ولد:

- ندخل الجامع.. وهناك عند المنبر الخشب، نصلي جماعة، وفي صلاتنا ندعو الله، ليساعدنا ويقصف عمرهم.

وقمنا إلى الباب المؤدي إلى الميضة، ودخلنا صامتين حذرين، نراقب الرجال المجتمعين في بقعة الشمس، دسنا المصلى المفروشة بالقش، واتجهنا إلى الصنابير، لنغتسل.

كلبة سوداء في المقهى

المطر توقف بعد أن تسلق النهار أطراف البيوت، والمقهى الواقع على حدود البلد، انفتحت أبوابه، وجر الصبي عربة السندوتشات من الداخل، وأوقفها أمام الرصيف، بعدما أسند عجلاتها الصغيرة بقالبين من الطوب.

وثلاثة رجال بثلاثة عمائم مزهرة قدموا من إحدى القرى الكائنة على امتداد الشارع، عقلوا مطاياهم أمام المقهى، واتجهوا إلى الرصيف يمسحون بطون نعالهم من الطين المختلط بالقش، ودخلوا إلى أحد الأركان، تاركين سلالهم بين سيقانهم، وطلبوا كرسي الدخان وثلاثة أكواب من الشاي، وراحوا يفركون أكفهم، مستدفئين، نافخين أنوفهم التي نفثت البخار الكثيف.

ودخل هذا الولد القادم من الورشة المقابلة، بسرواله "الجنز" المبقع بالشحم في أكثر من موضع، وبشعره الطويل الساقط على جبهته، تتدلى المفاتيح من تحت فانلته المكتوب عليها حروف أجنبية كبيرة، والمرسوم في دائرة منها مغن مسترسل الشعر يفتح فمه على آخره ويعزف على "جيتار"

امتد عوده إلى تحت الإبط.

قعد الولد – دون أن يصيح عليهم – على الكرسي المواجه للرجال الثلاثة، وفرك يده الملوثة بالسواد، وطقطق بجانب فمه بطريقة يبدو أنه معتاد عليها كثيرا.

ونادى بصوت حاسم : "زيزي"..

فدخلت كلبة سوداء برقبتها سلسلة، كانت تتلكأ عند عربة السندوتشات، وكانت صغيرة بسيقان قصيرة، وشعر غزير، تلمع عيناها المغروزتان كبليتين كبيرتين تحت شعر جبهتها الهابط من أعلى استدارة الرأس، ومن بين الشدقين التائهين في شعر مبال مفتول توجهت الكلبة نحو الإصبعين اللذين يستدعيانها بطريقة منتظمة، تشممتهما الكلبة ثم قفزت ببراعة لتقعد على حجر صاحبها.

والرجال الثلاثة استغرقهم وجود الكلبة تماما، فقد قاموا بمتابعتها منذ بروزها من وراء العجلات حتى هذه القفزة الرشيقة، وتباطأت حركة الجوزة التي تتداول بينهم، وبدأ سحبهم لجرعات الشاي يضعف، ويخفت، حتى تلاشت الرشفات التي يسمعها العابر في الشارع بوضوح. وقال واحد منهم باندهاش حقيقي: اللهم صل على النبي، والتفت الولد

إليه، ثم أهمله، وأشار للصبي الواقف وراء "الناصبة" وقال له: شاي.

وسأله الصبي: والمحروسة حتشرب إيه النهارده؟

فقال له: لسه ما فطرتش.

وتبادل الرجال الثلاثة النظرات بوجوههم العريضة، وتحركت الشوارب تحت أنوفهم في توتر ملحوظ، وفرك أحدهم فردة شاربه، ورمى العمامة إلى الخلف، وأراد أن يسأل، وخاف أن يحرجه الولد الذي لم يستفق من نومه بعد، وتولى الآخر طرح السؤال الواقف في حلق زميله: أظن دي مش بلدي؟

وأجاب الولد بإهمال المعتاد على هذا التطفل، أو ربما لأنه أجاب على ذلك آلاف المرات:

سلالة أجنبية.

ولم يذكر النوع بالضبط ثقة منه بجهل الجالسين أمامه، ولإحساسه بعدم أهمية ذكر الاسم الصعب الذي قد يجرجر أسئلة أخرى، وعاد ليلتفت إلى صبي المقهى: تعالَ هاتِ لها إفطارها.

ولما خرج الصبي بالصينية من وراء "الناصبة" ووضعها

أمام الولد صاحب الكلبة، اتجه للرجال وقال لهم موضحا وعلى وجهه تهكم من ذهولهم، وسمت الخبير بشئون هذه الكلبة بالذات: دي ما تكلش عيش حاف.

وليثبت ذلك اتجه إلى العربة، وسحب نصف رغيف، قطم منه لقمة وألقاها على الأرض، ورغبة من صاحبها لإثبات صحة كلام صبي المقهى، ورغبة منه في تصعيد اندهاش الرجال الثلاثة بعد أن عرف من سحنهم الساذجة أنهم من أهل القرى الذين ينزلون بلادهم كل سوق. أمر الكلبة بالنزول إلى اللقمة، شمشمت الكلبة بطرف أنفها جوانب اللقمة من بعيد، ودارت حولها، وهزت ذيلها، وزامت في دلع، ثم رفعت بوزها إلى صاحبها كأنها تقول له إنني كنت أعرف من قبل ولكني أسايرك في لعبتك.

وقفزت مرة أخرى إلى حجره، فاحتضنها، ومرر أصابعه في شعرها الغزير، واستجابت الكلبة إلى مداعبته ووجهها ينم عن أنها تريد شيئًا آخر، ورأت صبي المقهى يقشر لها البيضة فهللت لذاك، وضربت شعر ذيلها الكثيف في صدغ صاحبها بدلال، وأشار إليها بإصبعه على شفتيه، وصاح بحنو "زيزي". ومطت الكلبة رقبتها، ورفعت ساقيها

الأماميتين، وقبلت الشفتين الممدودتين إليها، ثم قعدت مرة أخرى، وفرد لها كفه بالبيضة، وراحت تأكل بفرح، فتراجع الرجال بظهورهم إلى الخلف وقالوا ضاحكين وهم يضربون الكف بالكف: ما أهبل إلا ابن آدم.

وفي هذه اللحظة مر كلب من الشارع، جلده منطبق على أضلاع بادية للعين المجردة. خرج من الشمس الساخنة وسط الشارع، ودخل في ظل المقهى، واقترب من العربة بحذر، ونظر إليه الرجال، وانتبهوا إلى وجوده تماما، ثم أعادوا النظر إلى "زيزي" المشغولة بطعامها، ورمش الكلب بعين حزينة دامعة كعين متسول، وكان باديا عليه أنه لا يريد شيئًا بالتحديد، إنما هو التصعلك، والوقوف أمام كل باب مفتوح منكمشًا في حذره من غدر ابن آدم الذي ينقض فجأة وبلا داع، من خلف، أو من أمام، فيركله بالنعل، أو يحدفه بحجر كبير في جنبه، ظل الكلب واقفًا يرمش بعينه، وفي كل رمشة تنتفض الذبابتان المتهالكتان على رشح عينه، ثم تعاودان بتصميم، وظل الرجال ينظرون إليه منشغلين بالمقارنة، وقد شعرت قلوبهم – لأول مرة – بالإشفاق على هذه الكلاب الكثيرة التي تدور في دروب قريتهم، وانحازوا بحس واحد

إلى جانب هذا الكلب الواقف بطيبة، وعبر أحدهم عن انحيازه بأن قال: لكن كلب زي ده يقدر يعدمها العافية ورد الولد وهو يمسح كفه من آثار البيض في جوانب الكرسي: لا.. ما تستهترش. وتدخل صبي المقهى لتأييده: حتجيب كلبة بتستحمى كل يوم، وتأكل "اللانشن" و"البسطرمة" في ثلاث وجبات بكلاب بيرمرم في الزبالة؟!

وقال صاحب الكلبة: وعلى العموم نشوف.

وصاح في الكلبة بقوة: "زيزي".. عليه.

وأشار بإصبعه إلى الكلب الذي تراجع إلى الخلف من أثر المفاجأة، ولكنه رفع شفته العليا في زومة جريئة مبديا أنيابا حادة في لثة حمراء كالدم، بينما الكلبة السوداء غزيرة الشعر كانت قد انقضت عليه من فوق الرصيف وقضمت ساقه، ثم لبدت تحت بطنه تجرها إلى الخلف وهو يحاول أن يستعيد ساقه، أو يحافظ – على الأقل – على توازنه مطلقًا صراخًا حارا غاضبا والرجال الثلاثة تركوا أكوابهم، واصطفوا بكراسيهم فوق الرصيف، يصفقون بأيديهم مشجعين للكلب المأخوذ بمعركة لم تكن في الحسبان، وصاحب الكلبة ترك كرسيه في الركن ووقف مستندا على العربة يحث "زيزي"،

ويشجعها: ها.. ها.. برافو. وصبي المقهى وقف وراء الكلاب منكفئًا عليه، يراعي المعركة بحيادٍ كحكم، واستطاع الكلاب أخيرا أن يفلت ساقه من الأسنان الصغيرة الحادة. ويرمي الكلبة السوداء على ظهرها وراح يخمشها، وينتف من شعرها بأسنانه، وهي تطلق نباحا مسرسعا يغطي عليه زمجرة الكلاب الغاضب، فما كان من صاحب الكلبة إلا أن شد أحد الحجارة التي تسند عربة السندوتشات ورماه بقوة على ظهر الكلاب الذي بدأ يئن من الألم في عواء ملأ الشارع وركض بعيدا مجرجرا جذعه.

وعاد الرجال إلى أماكنهم، وجلسوا بهدوء يكملون الشاي المتبقي في الأكواب، وعاد الولد إلى ركنه رافعا كلبته التي لم ينقطع لهاثها، ولا عواؤها الداخلي المكتوم وبدأ يمسح الطين عن خصلات شعرها باحثًا عن الجروح مطبطبا عليها برفق، وهي تتمسح وتدخل في حضنه، وتمر بأشداقها على صدغه، ونظر الرجال إلى بعضهم في رضا، ورفع أحدهم يده إلى الصبي الذي عاد إلى "الناصبة"، وقال: كرسيّ دخان يا ابني .. خلينا نروح لأشغالنا.

الغريبان

رجلان صغيران ببنطلونين وقميصين وحذائين، يضربان في حفر الشارع الصغيرة، ويتعثران في أوراقه وحطبه المتناثر، رجلان يسيران معا، لا ينظران إلى النسوة السمينات المتكومات على عتبات الدور، ولكن النسوة ينظرن ويبعدن الأولاد الواقفين حولهن ليشاهدن أكثر؛ ليشاهدن الوجهين السارحين، ولا يعدن إلا أحاديثهن حتى يديرا ظهريهما إليهن، ليدخلا الشارع الجانبي، والدار هناك، ينام على حطبها اصفرار الشمس الغاربة.

رجلان يدخلان من الباب المنخفض، ويكونان قد سمعا صوت المذياع من الشباك يرتل القرآن بصوت قوي، قبل أن يدخلا الحجرة التي يخرج من بين ضلفتيها دخان كثيف متماسك ويكون صوت المذياع أعلى، فيخلعا الأحذية، ويضماها إلى النعال الكثيرة المبعثرة فوق العتبة.

- "سلام عليكو".

ويرد الرجال الجالسون على الحصيرة التي على اليمين، ويتجهان إلى الحصيرة الأخرى تحت شباك الشارع، والرجل

بلحيته الرمادية يجلس بين الحصيرتين، وراء الوابور والكنكات المدخنة، يرفع رأسه إليهما: أهلاً.. وسهلاً..

ويضيق عينيه في مواجهة النافذة: مرحبا يا أستاذ إبراهيم.

الرجال فوق الحصير، وتحت الدولاب المدهون الداكن، يرفعون أكفهم الملمومة إلى جباههم، ويقولون بأسنانهم: هات حاجة هنا.

والرجل الصغير المقرفص أمامهم، يلتفت إلى الضيفين الجديدين، يركن المصفاة التي بيده ليسلم: ما حدش شافك من زمان.

و"إبراهيم" يسلم عليه، ويلقي نظرة على الباب المفتوح، كانت المرأة الصغيرة بالخارج ترفع غطاء الزير، وبين رجلها صبي يمسك طرف جلبابها، والمرأة ترمي النظرة الخاطفة، وتبتسم عينها المكحولة، تدير ظهرها، وتلقي فردة الضفيرة، ترفع الصبي عن رجلها إلى الحجرة: رح لأبوك.. نادى عليه يا " قنصل" .. ويرد "القنصل" المقرفص، والقابض على قلب الجوزة: تعالَ يا "عاشور" ويتعثر "عاشور" في خشبة العتبة، ويسقط على أسنانه، وفي ثانية كان "إبراهيم" فوقه يرفعه من ذراعه: بسم الله الرحمن الرحيم.

ويبصق في مكان السقوط، يرفع الولد على صدره، ويلقي النظرة السريعة التي ارتعش لها شاربه للمرأة الواقفة في الصالة: مش تبص قدامك.. جاك عمى.

ويعود "إبراهيم" بالولد مكانه على الحصير، جنب الآخر الذي بدأ يتململ من صوت المذياع، يكلم نفسه: "لو يوطي الراديو شوية".

والرجل وراء الوابور، ينظف الحجارة الصغيرة السوداء ولا يرفع نظره عنه ويقول: دا "الطبلاوي يا أستاذ".

و"إبراهيم" يبتسم للرجل: أظن ما تعرفوش. يا مولانا.

والرجل ينفخ في ثقب الحجر: ما حصليش الشرف.

- أخويا.
- أهلا وسهلا.. كام يا "أبو خليل"؟
- هات خمسة.

والصورتان على الجدار المقابل، على يمين الدولاب، رجل قاعد بلحية بيضاء كبيرة، وزبيبة سوداء كبيرة، والآخر يقف واضعا كفه الضخم على كتف القاعد والصورة صفراء قديمة في برواز مسود، وعلى الجانب الآخر صورة لصاحب

المكان، مرسومة بالفحم، وجه كبير، عليه عمامة بيضاء وطاقية طويلة ممتدة خارج البرواز.

قال لنفسه: فرق كبير.. في الصورة أدي له أربعين سنة.

مد الرجل يده بالحجارة مصفوفة في صندوق خشب مستطيل.

غير الجوزة.. يا قنصل ورص للأستاذ.

وقام "القنصل" إلى الخارج بساقين نحيلتين داخل كلسون القطن الواسع المثقوب بالنار في أكثر من مكان.

و"إبراهيم" " تابع القنصل حتى خرج، وأنصت لحواره مع المرأة في الصالة و"عاشور" قام عن حجره، ليلحق بأبيه فشده من يده: خد.

وأخرج له شلن الفضة، أدام الولد النظر إلى القرش في كفه، ونظر إلى الجالس وراء الوابور، قال له: قرش؟ ابسط يا عم.

ولم يرفع عينه عن الآخر الذي تحداه بدوره، ولم يسحب نظرته إلا أن خجل الرجل، وعاد يرفع الكنكة التي طفحت الشاي على جوانبها، قال: لما القرآن يخلص نسمع شريط جميل.

سأل إبراهيم: لمين؟

قال الرجل: للشيخ صلاح.. شفته شخصيا، جه المولد هنا.

قعد القنصل في مواجهتهما ينفخ نار المصفاة فتطقطق وتنتثر الشرر، قال: أنا شفته في مولد الحسين.

مد الغابة إلى "إبراهيم": مساء الخير.

وأمال "إبراهيم" رأسه إلى الآخر وهمس في أذنه: نشرب دول وأنا حكلمها لما نطلع.

والدخان ارتفع إلى السقف وخرج من الشباك إلى الشارع، في اللحظة التي وقف فيها الرجال يبحثون عن نعالهم.

الرجل الجالس وراء الوابور كان يدس الأوراق في جيب الصديري، بينما "القنصل" كان يتعفف لليد الممدودة إليه بالبريزة التي سقطت على فخذه، رفعها "إبراهيم" وأسقطها في عب "القنصل".

- سلام عليكو.

وعبروا العتبة، تردد صوتهم من الشباك لفترة، ثم تلاشى تماما، ولم يبق غير صوت المذياع، وكان يطغى على صوت المرأة التي تلاعب ابنها في الصالة.

شجر صغير أخضر

إلى إبراهيم أصلان

هكذا خرجنا من البلد في موكب واحد، الجد على مطيته ذات البردعة التي تتدلى منها شراشيب ملونة، وبمحاذاته تسير حمارتان يعتليهما ولداه الكبيران، أما نحن فقد صفونا على حمارة عارية الظهر، والرجال الذين يعملون لدى الجد وراءنا يجرجرون الماشية، وانتشر التراب حولنا في زوبعة تخفي خط سكة الحديد، وما وراءه من صفوف العبل.

كنا فرحين بتلك المغامرة المجهولة التي أعلن عنها الجد ليلة الأمس؛ حيث كان يركز على المسند في "فراندة" دار العائلة، وهو يحادث آباءنا وأمهاتنا المنبثين حوله قال: الكل لازم يكون معنا في الغد.. حتى العيال سنحتاج إليهم.

ولا ندري حتى الآن فيما سيحتاجون إلينا، ولكننا منينا أنفسنا بيوم رائع.

حين وصلنا العزبة رأينا أهلها ينظرون إلينا بكراهية، ولم يلق الجد السلام على أحد ممن مروا بنا، وكذلك فعل أبوانا.

وفتح لنا باب الدار المهجورة، وقال: لا أحد يخرج من هنا حتى أطلب منه ذلك.

وخرج هو وولداه ورجاله إلى رأس الغيط.

وقبعنا في الحجرة المطلة على الجرن، نبص من نافذتها.

قال على: سمعت أبي يتحدث إلى أمي عن أرض لنا ستملكها لنا الحكومة.

وسأل على: ولن كيف يريد جدنا الاستيلاء

قلت: ربما يريد الجد منا الاشتباك مع أولاد الناس الذين لا يريدون أن يتركوا لنا أرضنا.

وسأل محمد علي: ولكن كيف يريد جدنا الاستيلاء على أرض ليست له؟

قال محمد: أنت لا تعرف شيئًا؛ فالجد قد اشترى هذه الأرض، ولكن هؤلاء لا يريدون تركها له.

وقلت: أنا أعرف أن الجد كان كثيرا ما يذهب إلى المحكمة وقالت له المحكمة الأسبوع الماضي أننا نظرنا في الأوراق التي بحوزتنا وثبت لنا أنها من حقك.

وسمعنا صوت محرك السيارة يعلو ضجيجه كلما اقترب،

وشاهدنا الغبار يرتفع فوق أسطح الدور.

ووقف "البوكس" الحكومي بالقرب من مدار الساقية، ونزل منه ضابط على رأسه "بيريه" يضوي نسره في ضوء شمس الصبحية الصاعدة لتوها من الحقول، وقفزا من مؤخر "البوكس" عدد من الجنود يرتدون البدل الميري الخشنة، وبأيديهم بنادق كبيرة، وقفز معهم رجال يرتدون الجلابيب البلدية وعلى رءوسهم طواقي من الصوف، ساروا جميعا على حافة القناة ليقفوا تحت الكافورة التي يبدأ من عندها "مارس" الأرض، وظهر الجد ورجاله وأولاده من مكان خفي، وعبروا القناة ليسلموا على الضابط ورأينا الضابط يشير إلى حوائط الدور مرة، ويشير إلى امتداد الزرع مرة أخرى، وجاء واحد من رجالنا ليخرجنا من الدار، ويدفعنا أمامه نحو القناة جعل ساقية على حواف القناة، ومد يده ليعاوننا على العبور إلى الضفة الأخرى.

قال الجد للضابط: هنا يبدأ فدان الأرض.. من الجدار حتى زرعة القمح.

كانت الأرض التي أمامنا مزروعة بأشجار الجوافة والليمون والبرتقال، وتنتشر بين جذوعها نباتات خضراء

صغيرة.

مال الجد علينا ليقول: بعد أن يقيس لنا الضابط المساحة المقررة سأشير إليكم بيدي فتدخلون معا لتقتلعوا هذه الشجيرات.

وأشار إلى الشجيرات الخضراء الصغيرة المنتشرة بين جذوع الليمون والجوافة والبرتقال، وعاد الضابط. ليسأل الجد: ولكن أين أصحاب هذه الدور ليوقعوا على التسليم.

رد أحد رجالنا: كانوا حتى لحظة يا سيادة الضابط منتشرين على الجسر ولكنهم اختفوا فجأة.

أرسل الضابط واحدا من الجنود ليبحث عنهم، ولكنه عاد بعد فترة ليقول: الأبواب مغلقة والعزبة ليس بها صريخ ابن يومين يا أفندم.

صرخ: الضابط: انشقت الأرض وبلعتهم.. أطرق الأبواب، وأسحب من تجد من قفاه، اذهبوا جميعكم للبحث عنهم.

وانتشر الجنود ما بين الدور للبحث عن أهل العزبة، وراح الضابط يخوض مع الجد بين الزرع، بينما وقفنا نحن تحت الكافورة ننتظر الإشارة ونراقب الحذاء الميري الكبير

يدوس النبات الغض.

عاد الجنود من أماكن متفرقة، ووقفوا صفًا أمام الضابط، وقال أحدهم وهو يلهث: لا أحد في الدور يا أفندم.. لا بهيمة ولا حتى دجاجة.

وصرخ الضابط حتى انحبس دمه الأحمر في وجهه: كيف تجرؤ وتعلن ذلك في وجهي.

وتدخل جندي آخر: يا أفندم طرقنا كل الأبواب ولم يرد علينا أحد.

ومال جدنا على أذن الضابط: ربما اختفوا في حقولهم البعيدة.

وانتفض الضابط وهو يقول: خلاص.. استلم أرضك يا حاج، والمعترض يريني وجهه في المركز.

لم يكمل الضابط جملته حتى لمحنا يد الجد تشير إلينا، فاندفعنا إليه وسط الزرع متسائلين، وأشار إلى حافة القناة: أبدءوا من هناك.

وأشار إلى رجاله الذين كانوا قد عادوا من دارنا المهجورة بفئوس كبيرة ومناجل لها جوانب حادة ليضربوا بها جذوع الأشجار، وانضم إليهم آباؤنا، يقصفون ما تقع

عليه أياديهم القوية، وظللنا في مكاننا لا نبرحه ننظر إلى وجه الجد الذي سال منه العرق. حين التفت جهتنا جمعنا بين يديه بعنف وصاح مندهشا: أمازلتم في أماكنكم!! هيا.. ابدءوا من هناك.

ولم نكن قد فهمنا ما يريد، بل نظر كل منا إلى وجه الآخر متسائلاً، هل نبدأ مع الهواء ليس هناك من نشتبك معه؛ حيث إننا لم نر بعد عيالاً في عمرنا، وكنا نتوقع أن الكبار للكبار والصغار للصغار، وكنا تحدثنا سويا حول استخدام اليد والساق وحركات القفز السريع، وتدربنا قليلاً حين تركنا في حبسنا في الغرفة المطلة على الجرن، وشدنا الجد ليحني ظهورنا على الأرض، ابدءوا من هنا لا أريد أن أرى نبتة خضراء. وعاد إلى الضابط وهو يبرطم بالكلام: سنلقي بقاذوراتهم هذه في المصرف.

وما كدنا نميل لتلمس رءوس الشجيرات حتى سقط علينا وابل من حجارة لم ندرك أول الأمر مصدره، وحين انتصبنا نظرنا إلى الجد على ظن أنه غاضب علينا ويريد أن يحثنا على العمل، ولكننا وجدناه مطروحا هناك تحت شجرة ليمون، عمامته مفكوكة وملقاة بعيدا عنه، والضابط يهرول

خارجا من الأرض بعد أن أطاح حجر كبير بـ "البوريه" حاول أن ينحني ليمسك به، فصدمه حجر آخر في صدغه، فخرج وهو يجعر بأعلى صوت ممسكًا جانب وجهه: أمسكوا أولاد الكلاب.. أمسكوهم.

وانتشر الجنود، وحاصروا الدور مصدرين بنادقهم على صدورهم، ورفع الولدان أباهم عن الأرض، ورفعاه بين أيديهما حتى مدد تحت الجدار الذي قبعنا أسفله نحمي رءوسنا من الحجارة المنهالة من فوق السطوح.

وصاح الضابط وهو يتحسس يده المدماة: كيف سيهربون من العدالة؟! سأريهم جميعا.

واعتدل الجد في جلسته وراح يكور عمامته وهو يردد: سأمحو ذريتهم عن وجه الأرض.. هؤلاء المناجيس يريدون أن يرتعوا في أراضي الناس.

وانهالت على رءوسنا أقراص الجلة المجففة وأكوام القش، فجرينا نحو الجرن، سقط منا على في القناة، فعدنا على عجل وجررناه وراءنا، بينما جلبابه يقطر الماء في خيط طويل، هناك وقف الجد لاهثا، وحوله أولاده يهدئون روعه ويمسك أحدهم بيده: اهدأ يا أبي الحكومة تعرف شغلها.

ودفعه بكوعه: أتريدني أن أهدأ يا نعجة، ترى هؤلاء المناجيس يسقطون أباك على الأرض فلا تتحرك نخوتك أنت وأخوك.

ورد الآخر: وماذا تريدنا أن نفعل والحكومة - كما ترى- لا تقدر عليهم.

واقتربت منه لأقول: الضابط سال دمه يا جدي.

فدفعني بعيدا: لا خير فيكم ولا في آبائكم، كأني أفعل هذا لنفسي.

وارتفعت رءوس الرجال والنساء فوق السطوح ينسحبون خفية من وراء صناديق الغِلال، وقف واحد منهم واتجه نحونا: على جثتي يا حاج.

وقامت النسوة وبدأن يهززن بطونهن ويزغردن ويطلقن الشتائم القبيحة: بعينك يا مفتري.

وأدار لهن الجد ظهره، ووبخ ولديه: أتسمعان هذا وأنتما مكتوفا الأيدي.

فنفضا أيديهما، وراح أحدهما ينادي على الضابط. تفضل هنا يا أفندم.

ولكن الضابط أشار ساخطا: ليس قبل أن أريهم واحدا واحدا.

وكان الجنود قد اقتحموا المنازل، وأطلق بعضهم البنادق بطلقات تهديدية في الهواء، ورأيناهم أخيرا يوفقون في الصعود إلى السطح ليسحبوا الرجال من أقفيتهم وبدءوا يجمعونهم في كتلة واحدة وسط الجرن.

والنسوة رحن يصوتن من خلفهم: واخدينهم على فين يا ظلمة.

ولم يهتم الجنود بصراخهن، وبدءوا يدفعون الرجال بمؤخرات البنادق ثم ظهر أخيرا الرجل الكبير صاحب الدار متلفعا بشال الصوف البني وممسكًا بيده شومة لها بروز خشنة، أقبل جهة الضابط غير هياب: على جثتي هذه الأرض.

ورد عليه الضابط بتعال: سأعرفك بأن في البلد قانونًا لا يغفل ولا ينام.

والنسوة لم يكففن عن الصوات مرة والزغردة مرة ورفعن أغطية رءوسهن السوداء وبدأن يشلشن، فاتجه الضابط إليهن شاخطا: إن لم تحبس في أجوافكن سأربيكن جميعا.

وصرخت واحدة في وجهه بعد أن قذفته بحجر كبير قفز من فوقه ببراعة: ربنا على القوي.

وأمر الضابط الجنود بأن يقيدوا الرجال في حبل واحد، ويسوقونهم إلى "البوكس" وبدأ الجنود تنفيذ الأوامر وسط العويل والشتائم، وحرك الجد لسانه بعد أن جرى ريقه، وساقنا نحو باب الدار: ادخلوا أنتم.

ومرقنا بسرعة إلى الحجرة المطلة على الجرن، وراقبنا المشهد من وراء السلك المقطوع، ولحق بنا رجال الجد ثم دخل الجد وأولاده، وأحكموا غلق الباب بينما راح الجنود يسحبون رجال القرية نحو "البوكس" المنتظر على الجسر، والنسوة وراءهم يهلن تراب الأرض.

ووقف الضابط مرة أخيرة على باب "البوكس" ليقول للجميع: سأعرفكم بأن في البلد قانونًا لا بد أن يحترم.

وعفر "البوكس" المكان حين قفز باتجاه البلد، جرت النسوة وراءه يحدفن الطوب وينثرن التراب، ثم عدن باكيات مهزومات إلى الرجل الكبير الذي وقف تحت الكافورة مسددا عصاه الغليظة في وجه الهواء يحادث شخصا بعيدا عنه، لا يبين كأنه هناك في سمك السماء.

- أنت شايف وعارف.

ثم تركنه وأقبلن جهتنا يرفعن جذع الشجرة الميتة، والحجارة الطينية الجافة، ويقذفنها بآخر العزم وكنا أوصدنا على أنفسنا الأبواب والنوافذ، نتسمع لدبيب أقدامهن، ودفعات أكتافهن القوية في الباب القديم، وسقطت علينا بعض الحجارة من السقف المفتوح فتوزعنا في الحجرات.

الرجل ذو البطن المفتوحة

هذه المرأة البدينة هي زوجة الحاج صاحب هذا الحوش الوسيع، هي الآن تعبر من بابه، لتجلس تحت السنطة التي يمتد جذعها من وراء السور، لتسمق حتى تتجاوز الدور الثاني لدار أبيها، تخرج أختها من الردهة المظلمة، وتربع إلى جوارها بانتظار أن يجتمع باقي النسوة اللائي يخرجن من دورهن في نفس الموعد.

كانت قد شوت السمك الذي عادت به من السوق، غدت الأولاد الصغار، وحجزت بعض الأمشاط لابنها الكبير، كما اعتادت أن تحفظ له نصيبه من كل وجبة، وقالت لنفسها: ربما يأتي هذا المساء.

ومرت عليهن عربات التجار الغرباء تجرها الخيل محملة بلفائف الأقمشة، يعود بها أصحابها إلى بلادهم بعد انفضاض السوق، ومرت عليهن عربات التجار من أهل البلد تجرها الحمير، ترفع الخيام والبضائع، وفي النهاية أقبل الحمالون بعربات تدفع باليد عليها بقايا الخضر والفاكهة.

قالت امرأة الحاج لنفسها: وانقضى سوق آخر ولم يأكله

قلبه على أمه بعد.

وتكلمت مع جاراتها عن السوق والأسعار وطبيخ اليوم، وتفاوت الكلام عن الأولاد هناك. حتى قالت أم حسن: إن ولدها في إجازته الأخيرة. قال لها: يا أمي لا تقلقي إذا طالت مدة الغياب؛ فنحن هنا لا نملك من أمرنا شيئا، فلسنا غير عبيد مأمورين، حين يتاح للنفر منا النزول لا نتردد، ولكن قد نفاجأ بأوامر تعطلنا، فادعي لنا، وادعي لكل الزملاء.

فرفعت امرأة الحاج يدها، ورفعت وجهها إلى سقف أغصان السنطة لتنظر إلى وجه الله من بين الأوراق: أنت أعلم بنا، فخذ بيدهم جميعا.

وقطع دعاءها ولدها الصغير قال: يا أمي هناك رجل غريب ينام ببطن مفتوحة وراء السور.

والتفتن إليه جميعا: بطن مفتوحة!!

- أين يا ولد؟

قال الولد لاهثًا وهو يشير إلى السور: في الحوش.. وراءكم تماما.

وقمن مرة واحدة وسرنا وراء امرأة الحاج التي دخلت بكتفها من بين الضلفتين وداست على كومة القش القديم،

ووراءها وقف النسوة في نصف حلقة يبحلقن في هذا الغريب، كان يستند بظهره على جذع السنطة التي تظلل عليهن بالخارج، وقميصه الأبيض الملوث ببقع دموية مرفوع إلى صدره، وتبرز بطنه المدلوقة إلى الخارج، كأنها مبقورة بسكين من الخصر إلى الخصر، وجزء من الأمعاء انسحب من لفائفه، وتدلى فوق شعر البطن.

رفع الرجل أجفانه المرخاة، نظر إليهن متألما، ومد يده الممدودة إلى جواره.

- شربة ماء لأجل النبي.

وخبطت امرأة الحاج يدها على صدرها: عين أمك ودفعت أختها صائحة: كوز ماء يا بت.

وعادت الأخت على أعقابها لتملأ الكوز، من صنبور يبرز من السور المنخفض، واقتربت امرأة الحاج من الرجل، وانحنت عليه لتبلل شفتيه بالماء، ودمعة كبيرة سالت على خديها، جففتها بطرحتها البيضاء.

سألته أم حسن: هل أنت عائد من الجبهة يا ولدي؟

نظر إليها وهو يتوجع، ثم أدار وجهه بعيدا، ففهمت أنه غير قادر على الكلام.

قالت الجارة الخبازة: يا حسرة، لو أحدٌ من رجالنا هنا لقام بالواجب وحمله إلى المستشفى.

فأدار الرجل وجهه بهلع، وطقطق بشفتيه: أنا لا أريد المستشفى.. لقد أخرجوني منها، وقالوا: الجنود الجرحى أولى منك.

سألت امرأة الحاج وهي تقوم: لست من الجنود إذن؟

- أنا رجل على باب الله، أولاد الحرام تشاجروا معي في السوق وضربني أحدهم بالسكين كما ترين.

قالت بحزن: منهم لله.. قم يا بني معنا ربما تكون جائعا نطعمك لقمة.

وأمسكنه من كتفيه، وسار بينهن متهالكا، يجرجر ساقيه حتى أخرجنه من باب الحوش.

- دعونا هنا.. لا أريد الخروج إلى الشارع، ربما يمر أحدهم.

فأرحنه على سور الحنفية الواطئ، وهرعت الأخت مرة أخرى لتعود برغيفين وطبق قشدة به قطعتان من الجبن القريش.

وجلسن حوله في حلقة، وهو بدأ ينقل اللقيمات بتؤدة إلى فمه، ويمضغ على مهل، وانفردت أجفانه قليلاً، وصحت عيونه، وصارت نظرته أكثر قوة ووضوح، وكان الولد الصغير قد عاد بجمع الأولاد، فتحلقوا حوله ينظرون بشراهة، ثم ترك أترابه واقفين، وقبع إلى جوار الرجل، لا يرفع عينه عن البطن المجروحة.

وعادت أم حسن تسأل الرجل: لم تقل لنا من أي بلاد أنت؟

فنظر إليها طويلاً، وقد أوقف المضغ، وسكنت يده باللقمة المعلقة قرب شفتيه وهي داومت النظر إليه في ثبات، ثم اهتز جفناها، فأرختهما بحرج، والنسوة تابعن ذلك باندهاش، ولم يفهمن إصراره.

وأمسكت امرأة الحاج رفيقتها من يدها: الرجل جائع دعيه حتى يأكل.

فنقل نظرته الثابتة إليها، فمدت يدها إلى قميصه لتسحبه إلى أسفل: دار بطنك.

فعاد يرفع القميص إلى صدره بتحد، وانبعث خوف ضئيل إلى قلوب النسوة، واستغربن لتصميم الرجل على كشف بطنه.

قالت الجارة الخبازة: كنا نظنك أحد أولادنا على الجبهة.

فسأل وهو يميل برأسه إلى أسفل ليضغط على أمعائه بأصبعه: لكم أولاد هناك؟

قالت امرأة الحاج: لا عائلة في البلد إلا ولها ولد هناك.

- وهل يسمحون لهم بالإجازات من حين لآخر؟

ردت أم حسن مستنكرة: أتظنهم يقضون العمر بين الخنادق ولا يحنون إلى أمهاتهم وآبائهم.

وهل هم سعداء في مواقعهم؟ ألا يكتبون الرسائل؟

قالت امرأة الحاج: حين تطول أيامهم هناك يكتبون الرسائل.

وسأل الرجل بطريقة مباشرة، وكان قد كف عن الكلام: وعن أي شيء يتحدثون في الرسائل؟

وتابع كلامه بتهكم: طبعا ليس بالجبهة ما يكتب عنه؟

سكت فترة، وهن لم يجدن ما يعقبن على كلامه فقال: أظنهم لو كتبوا سيكتبون عن المناورات ومواقع الصواريخ التي يقيمونها هناك.

فصار الخوف في قلوب النسوة جزعا. فسألته أم حسن

دون شفقة: ولكن كيف سمحوا لك بالخروج من المستشفى على هذه الحال؟

وقالت الجارة الخبازة: كانوا على الأقل ربطوها بشريط.

فأعاد تشكيل وجهه من جديد، وبدأ يرفع يده متوجعا.

- ماتت الرحمة في قلوب الناس، قالوا: طالما أنت لست جنديا فلا يحق لك العلاج.

وكان الولد الصغير قد اقترب حتى التصق بالرجل ليداوم النظر إلى البطن المبتورة بتطفل شديد، وكانت يده الصغيرة ترتفع من حين إلى آخر، يقاوم رغبة قوية في أن يمدها إلى جرح الغريب، ومد إصبعه أخيرا إلى تلك القطعة البارزة من الأمعاء، والتفت إليه الرجل بعد فوات الأوان؛ لأن قطعة الأمعاء سقطت فوق الرغيف، فجزعت النسوة، ومدت أم حسن يدها إلى الأمعاء قبل أن يقبض عليها الرجل، وتلمستها بيدها، وقلبتها أمام عينيها، والنسوة كن قد أشحن بوجوههن مشمئزات، ولكنها صاحت فيهن مهللة:

انظرن.. أنها قطعة من البلاستيك.

- من البلاستيك!!

وش الفجر

- يا أهل الدار.

ويطل رأسه من وراء ضلفة الباب المغلقة.

- ادخل يا "عبده".

ويعبر العتبة، وهو يرفع شاله القطني عن رأسه، يمسح بأطرافه العرق الغزير عن وجهه، ويقعد على طرف الحصير المفروش بالصالة إلى جوار الأختين العائدتين – لتوهما – من السوق، كانتا تفرزان الخضار، هذه بندورتك، وهذه بطيختك، وهذه ربطتك من الخضرة والبقدونس، وهذا ليمونك، يرقبهما "عبده" على استحياء، وتعبث أصابعه داخل السلة التي لم تنعتق – بعد – من ذراعه، ثم يعود للترويح على وجهه بأطراف الشال.

- يا أختي السوق زحمة.
- مولد.. كل سنة وأنت طيب.
- بالعافية خلصت بنص كيلو لحمة راس.
- الله في عون أصحاب العيال.

وتقوم الأخت الكبيرة لتصنع القهوة كالمعتاد، وقبل أن

تدخل الكرار، تنحرف إلى حجرة النوم، وتطل برأسها لتقول لشخص لا يرى: جئت لك بالليمون.

ويسأل "عبده": الحاج هنا؟

وترد الأخت الصغيرة باقتضاب: في الشغل.

ويشتبك معها في ثرثرة متدفقة، فيشكو لها أحوال الدنيا، وكيف أنه هو الوحيد في غلب لا ينتهي، ففي هذا الأسبوع داخ حتى حصل على قدحين من القمح وكيلة ذرة، وسعى بها إلى الطاحونة، وكيف أن الحاج زوج أختها شخط فيه ونطر، ويتساءل باندهاش: ليه الرجل دا ما يطقنيش؟! كنت فاكره حيكرمني، أخذ الطاق طاقين.. يكونش عامله عمل!

ويلقي نظرة حذرة نحو الباب، فيرى أهل القرى المجاورة يعبرون فوق الحمير متجهين إلى المولد في قوافل فاقعة الألوان.

ويواصل حكايته مع الخبيز، وكيف أنه قضى الليلة بطولها يعجن، ويقطع ويحمي الفرن، ولا أحد من الجيران يقول: "عنك" أنا عبده بتاع زمان.. ما كانت الرجل تنقطع من عندي "ولا السهرة تحلى غير في بيتي" "يكونشي يا أختي الواحد كبر وأنا مش دريان"!

وتتجعد سحنته لتتهيأ للبكاء، فيلم سبابته على العينين خشية أن يسيل منها الكحل، ولكن الدمع يغالبه، فيسيل في خطين أسودين، ويقطع إجهاشه: "سلفيني شوية كحل حجر يا غالية".

- ما كان يتعز يا "عبده".
- والنبي عمري ما أخذت منك حاجة.. البركة في أختك.. إنت بخيلة.. من أيام ما كنت أزوركم في داره، ألف رحمة ونور عليك يا غالي يا طيب.. أبوك يا "بت" كان سيد الرجال، لما كان شيخًا للخفراء كانت داري تصهلل للصبحية، وكان يعدي على آخر..
- قطع لسانك.
- فكركِ راح لبعيد، كان يجيء للانبساط، آه منك يا بلد.. طول عمرك ظلماني.

وتعود الأخت الكبيرة بصينية القهوة، تضعها أمام "عبده" وترفع سلة الخضار لتعود بها إلى دارها، وكلبش "عبده" على فخذها.

- والله ما انت ماشية قبل ما أشوف لك الفنجان.

وتدخل الأخت الكبيرة حجرة النوم بكوب من عصير الليمون، ويسمع "عبده" صوتها تحادث الشخص الذي

لا يظهر وراء الضلفة المغلقة، ثم جاءت لتجلس معها، وترفع الفنجان، وترشف منه على دفعات، وهي مستغرقة في سرحات طويلة، وتتأمل زوجها، خشية أن يعود فيجد "عبده" إلى جوارها، فيلقيه بسلته إلى الخارج، فكم مرة حذرها من استقباله.

- والنبي انت أميرة، أما أختك.. أعوذ بالله!
- لِمّ لسانك..
- الله يسامحك.
- خلص يا "عبده" قبل ما الحاج يطب على غفلة.
- هو أنا باشوفكم غير من السوق للسوق؟!
- شافتك العافية.
- هو انت يا مزغودة لا ترحمي، ولا تخلي رحمة ربنا تنزل.. شاطرة في الكلام، لا باشوف منك أحمر ولا أخضر.. البركة في حبيبتي الغالية.. والنبي طالعة لأمك. ومال بجذعه كله ليطبطب على كتف الأخت الكبيرة، وارتجفت الكتف تحت لمساته، وانشدت منه فجأة، فكاد يسقط على جنبه.

- احكي لكم على المولد.. من نفسي يا أختي، زهقت من قعدة الدار، قلت أزور صاحبة المقام العالي، وأدخل "التياترو" وقطعت تذكرة، وأشوف لك اسم الله على مقامكم جاموسة لا تدخل من الباب، تطلع على المرسح وتروح عاملاها.

جاموس! ما تروحوا تفرجوها لأهل البندر.. بسلامته ابنك كان هناك، واتلمّ علي الجدعان، وزفوني، يادي الفضيحة، أخذوني من باب "التياترو" لغاية باب المقام، والله يخليه لشبابه طردهم وأخذني في حمايته ووصلني لداري.

- رجع على وش الفجر، وراقد في فرشته من ساعتها.

- ماله؟!

قام دخل الحمام ورجع كل اللي في بطنه.

- ألف سلامة عليه.. أرقيه.

وجمع أطراف جلبابه، وسار ناطرا يديه إلى الوراء، وهو يهز ردفيه تحت الجلباب، وقامت صاحبة الدار خلفه، والأخت الصغيرة رفعت سلتها وقال: أرجع لك المغربية.

كان الولد يتصبب عرقا، حين أحس بالداخلين أزاح عن جسده الغطاء، وانكمش نحو الجدار، وكشر جهة الرجل

بعداء، وأشار إليه، وقالت الأم مستنكرة: دعه يرقيك.. في يده البركة.

ولم يحفل الرجل بنظرة العداء، وقعد على حافة السرير، وطلب من صاحبة الدار ورقة بيضاء وإبرة خياطة يغرسها في كل عين حاسدة، وقبع الولد بعيدا بأقصى أطراف السرير.

وخرجت الأم لتحضر الورقة والإبرة، وسمع صوتها تبتهل بالدعاء، ومد يده إلى الجبهة العرقانة: "باسم الله أرقيك.. والرب يشفيك" دفع الولد يده بعيدا عنه، وأمسك بطنه بيديه، ونام على وجهه يتلوى من الألم، وعادت الأم لتجد الرجل يمرر كفه على ظهر ابنها المنتفض: "قل أعوذ برب الفلق.. من شر ما خلق." ويقطعها بتثاؤب يخلعه من جماع جسمه، ويعصر عينيه بسبابته، ليثير دمعهما نحو النافذة المفتوحة.

وتقلص جسد الولد فجأة، ومال برأسه على الأرض ليدفق من فمه المفتوح على آخره عصارة المعدة، وهرعت إليه الأم بالطشت، فجعلته تحت وجهه المزرود.

حين نظر "عبده" إلى الطشت قال: طالما هذا السائل

الأصفر قد نزل.. قولي الحمد لله.

شدت الأم المنديل من صدرها وراحت تجفف به الجبهة المبللة، وفردت الغطاء على الجسد الذي هدأ قليلاً.

الغناء ساعة الغروب

-١-

لم تر واحدة منهن رجلاً من الرجال، ورأين هذا الفتى القادم من أول الشارع.

-٢-

وكن حين تمتد ظلال دورهن لتملأ فراغ هذا الشارع الواسع، يخرجن من الدور بعد أن يقضين القيلولة الساخنة خلف الأبواب المغلقة. ممددات في السكون، يتسمعن لطنين الذباب، ثم ينتبهن على صيحة ولد فر من ظلام الحجرات، وراح يلعب تحت النوافذ مع غيره من الفارين من حبسة الدور الراقدة.

يقمن وكأنهن على موعد ليجتمعن – في وقت واحد – تحت هذه السنطة الواقفة وحدها وسط الشارع، تقطع الهجيرة الحارة بظلة خفيفة، مزقتها شمس المغرب الصفراء، ونفذت من خلالها على هيئة بقع ذهبية واهنة الضوء.

يتجمعن في حلقة حميمة حول "طشت" أتت به واحدة

منهن، امتلأ إلى آخره بحبات القمح لينزعن منه الطوبة السوداء الصغيرة.

والأولاد يبدءون في اللعب، بعد أن خرجت الأمهات من حبسهن. وصاروا يزعقون علانية، وبلا حرج، فضلاً عن انتعاشهم بطقس الغروب، الذي لطف الهواء بنسمة رائعة راحت تلهو بتردد واستحياء بين الجدران التي حملت آخر وجه للشمس المختفية هناك خلف أسوار السكة الحديد العالية.

وترقب النسوة – على فترات – أول الطريق بانتظار الرجال الذين حان وقت أوبتهم، يعتلون ظهور المطايا، ويجرون بأيديهم حبال المواشي.

-٣-

لم تر واحدة منهن رجلاً من الرجال، ولم تر واحدة منهن زوبعة الغبار التي تثيرها حوافر الماشية، ورأين هذا الفتى الذي امتزج وسخ هدومه بغبشة الغروب الرمادية، كان هابطًا إلى الشارع يتعثر في حجارته، وتركت النسوة مات بأيديهن، ونظرت كل واحدة إلى وجه الأخرى في دهش كأنما تؤكد ما يدور في عقل الأخرى.

- ٤ -

وكان الفتى يتقدم، في حذائه الأسود الضخم الذي تفتقت جوانبه، وانحلت أربطته، فيجعله يتقلقل في مشيته المضطربة، ولما اقترب من الحلقة رأين عينيه العمشاوين تتغلقان على حمرة أبدية، كأنهما قطعتا جمر ركبتا في تجويف العينين، ورأيت الخروم التي تنتشر على طاقيته المبرومة، وأين الصرة تتدلى من يده المجرحة، تبرز من فتحات العقدة كسرات من الخبز اللدن.

وانتبه الأولاد للقادم، فتركوا لعبهم، وتجمعوا في نصف دائرة تنغلق عليه، ولشعورهم المتوحد بغربة القادم، ولشعورهم الخفي بضعفه، وقدرتهم على اللهو به وإظهار الشجاعة في ونس الأمهات، بل لتأكدهم من أنهم قادرون على جلب السعادة لقلوبهن، تشجع الأولاد، وأحكموا الحلقة على الفتى. حاول الإفلات منهم، فتحركت الحلقة بإحكام، لتقفل عليه الطريق، فزام بمسكنة، وهش بيده الفارغة أشباحا مجهولة، وفزع الذباب الذي انشغل بامتصاص سائل العين، فحوم في الغبار لحظة، ثم عاد متهالكًا إلى موضعه.

- خلوني أعدي لأجل النبي.

هكذا صاح بغلبنة، فلم يشفق عليه الأولاد، وزادتهم رنة صوته شجاعة.

وأراد أحدهم أن ينحني إلى طرف جلبابه من الخلف ليرفعه إلى أعلى، فدار الفتى حول نفسه دورة كبيرة مفاجئة، جعلت فردة الحذاء تفلت من قدمه وتطير بعيدا.

وانفكت الأيادي المتماسكة. وهرع الأولاد فرادى إلى الحذاء، ليرفعه أحدهم بيده مهللاً به.

- هيه.. هيه..

- شوط يا أحمد.

وألقى الحذاء على الأرض. واصطدمت رءوس الأولاد حين أرادوا الإمساك بالحذاء. وبسرعة عجيبة انقسموا إلى فريقين، ووقف أحدهم كحارس مرمى على باب الحوش الوسيع، يتقاذفون النعل فيما بينهم في تهلل وانشراح، وكأنما عثروا أخيرا على لعبة جديدة.

والفتى الأعمش العينين تاه بينهم، وحاول أن يوهمهم بالبكاء، وكان بكاؤه مجرد نواح مقطوع، لا يجلب الشفقة، ولم تسقط من عينه دمعة واحدة.

- تعال يا شاطر.. تعال يا حبيبي.
- ولم يلتفت إلى المرأة التي نادت عليه.
- سيبه يا واد.

وقامت أصغرهن سنًا لتمسك النعل من بين أرجل الأولاد، ولكن أحدهم جرى به نحو طريق السكة الحديد، وتبعه الآخرون.

-٥-

قعد الفتى على ركبتيه تحت جذع السنطة يدعك عينيه، والذباب حوم في عينين مسموع حول الكفين المطبقتين.

- تعال ما تخافش.
- اوعى كده.

وصار الآن وسط حلقة النسوة، وأهمل "الطشت" وركن على جنب، وبدأت النسوة يسعين بنظرهن المتطفل على الفتى الذي قبع حائرا، يرنو بنظرة الكليل، نحو مدخل الشارع الذي تجمعت عليه أشباح باهتة، تلهو بظأطاطة ومرح.

- زمانهم قطعوه.
- ما تخافش يا ضنايا.

- أنت منين؟
- ....
- نازل الشارع دا ليه؟
- ... ...
- بتشحت يعني.
- شايفاني وش ذلك؟

وتغامزن فيما بينهن، وكتمن الضحك في عبهن من هذه اللهجة المتعالية لفتى متهرئ الثياب، يحتد في دفع الإهانة.

- شغلتك إيه؟
- أنا فنان.
- فنان!!
- مغني عاطفي.

وانفرشت أبدانهن على الأرض، ومنين أنفسهن بوقت ممتع على غير العادة.

- سمعنا صوتك.
- وحنبسطك.

نظر حوله بارتياب. ثم حانت منه التفاتة أخيرة إلى

الأشباح البعيدة التي اختفت وسط عاصفة ترابية ارتفعت إلى أسطح الدور.

-٦-

تنحنح الفتى، ونفخ هواء من أنفه، ورفع كفه الفارغة، وطواها على صدغه، بعد أن تركت السبابة على واحدة من فتحات الأنف المظلم، ليطرق بها كعازف الناي، ثم تركت يده الصرة. وانسحبت إلى أطراف "الطشت" النحاس لتوقع عليه، وتهيأ أخيرا للغناء، بعد أن ترقب النسوة طويلاً وتوقفن عن الزغد، وجلسن منصتات ومهيئات للبهجة المقبلة، وانطلقت عقيرته، بعد أن تلاشت من حوله كل الأشباح.

خاين يا زماني.

وديت حبيبي فين؟

ولا جواب جاني

شيعت له جوابين

وانفتحت القلوب للصوت الجميل. وهبت طراوة المغربية، تمرح بين أغصان السنطة. وكأنما اخضرت أوراقها في غير أوانها! وانمحى الوجود من حولهن. لم يعد غير صوت يمزع

في الشرايين الخامدة ليفتح سككًا للدم الحار المتدفق، وترقرقت عيون الصبايا منهن بالدمع، ورحن يمسحن العيون بجوانب الأكمام.

وكان الأولاد قد عادوا دون أن يشعر بهم أحد، وتوزعوا خلف ظهور النسوة، في أول الأمر أبدوا السرور، وكأنما يقولون فيما بينهم: هذه فرجة أجمل من اللعب بالحذاء.

وخفتت حركاتهم مرة واحدة، وكتموا الأصوات، وحبسوا الكحة المفاجئة، وانتهى الفتى من أغنيته، وهيئ لمن حوله أنهم لو رفعوا الأصابع لتندب في العينين الحمراوين المفتوحتين على الفراغ ما تحرك لهما جفن، ولم يسأل الصبي عن نعله.

-٧-

شوهدت طلائع الغبار مقبلة من مدخل الشارع، وفزعت القلوب هكذا سيجبرن على النهوض، وقبل أن يتعرضن لإهانة الزوج، تلفتن مرة واحدة إلى المقبل فوق المطية، وفرحت النسوة بعد أن لكزت إحداهن: زوجك.

وقفت المرأة تنفخ، وتخبط الجلباب فوق ردفيها، ثم أعادت

النظر إليهن بتشف، وأشارت إلى أول الشارع، كان عدد من الرجال قد جاء دفعة واحدة، يجرجرون خلفهم قطيعا من البهائم.

فتأكدن أن ساعة المتعة قد انقضت، وحرصن أن يؤكدن على الفتى ألا يسير حتى يعدن إليه.

-٨-

انزوى الفتى تحت الجذع منكمشًا على نفسه، يتحسس بأصابعه عقدة الصرة، ويدور بها حول المكان بحثًا عن شيء مجهول، والأولاد ظلوا في حلقتهم صامتين! ينظرون إليه بتقدير وحسد، ويلوح أحدهم بالحذاء بحذر.. فيشير إليه الآخر بألا يعطيه للفتى، فيقول واحد: حرام عليك.

والفتى ظل يتابع الحوار الخافت فيما بينهم، ورحيل الذباب عن وجهه أكد قدوم الليل، وكان حدسه صحيحا، وانمحت الظلال تماما، ولم يعد أثر للشمس، وازدادت غبشة المغرب قتامة. وارتفع لغط الرجال القادمين، وامتلأ الشارع بنعير الجاموس الذي يهرول باضطراب نحو الدور الواطئة.

-٩-

- خد جزمتك.
- ربنا ينجحك يا رب.

وشعر الولد بحرج شديد – وأراد الآخرون أن يغفر لهم الأذى. ولكن وجهه البشوش شجعهم على الإقبال عليه، وتلمس هدومه دون خوف، ولأنه تعثر في لبس الحذاء. انكفئُوا عليه ليعاونوه، وأرادوا أن يعقدوا أربطة الحذائين، ووفقوا في ذلك، وقالوا له: أُقَف كدا.

وطاوعهم الفتى، وضرب الحذاء ضربات متتالية على الأرض، وقال: صحيح.. بقى جامد.

-١٠-

جعل من ذراعيه مكبسين لعجلتين دوارتين، وأطلق من فمه أصوات الوابور المسافر ثم وضع كفه على فمه صائحا بصفير القطار، وانبهر الأولاد باللعبة، وأمسكوا بذيل جلبابه، وجعلوا من أذرعتهم مكابس لعجلات تسير على قضيبين، وانطلقوا في حركة موحدة نحو شارع السكة الحديد.

- توش .. توش.
- وا .. وا..
- توش .. توش.
- وا .. وا ..

وهو في المقمة يجرهم بهدوء، ومن وقت لآخر، يزيد السرعة، وهم معه في إيقاع متوحد، سعداء باللعبة، وبدأ في الغناء من جديد، وهم يرددون.

يا وابور الساعة اتناشر.

يا مقبل ع الصعيد.

شمس العصاري غابت ياللي بلادك بعيد.